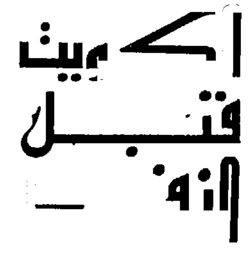
دراسات خليجية



ترجمة وتقديم

دكتور محمد غانم الرميحي

باسم سرحان



ساعدت جامعة الكويت في طبعـــه

دراسات خليجية

(١)

الكويت قبل النفط

ترجمة وتقديم

دكتور محمد غانم الرميحي

باسم سرحان

الطبعة الاولى

آب ١٩٧٥

منشورات دار حوار للطباعة والنشر

الكويت

مقدمة

مذكرات الدكتور س· ستانلي ماليري التي نضعها بين يدي القارىء العربي في هذا الكتيب ـ هي وصف معـايش لتطور الكويت ، يرويه شاهد عيان ساهم شخصيا في أو راقب عن كثب مجريات الامور سواء في الكويت التي كانت مقـــر اقامته الدائمة ، أو في البحرين التي قضى فيها بعض الوقت كطبيب ·

لقد كانت هذه المذكرات الشخصية للدكتور مـــــاليري مطبوعة على الآلة الكاتبة بالانكليزية ومودعة في مكتبة مركز الشرق الاوسط في جامعة اكسفورد في بريطانيا · والظاهر ان أمل كاتب المذكرات كان نشرها بتلك اللغة ·

الا انه من الواضح ان نشر هذه المذكرات في الغرب لم يكن ذا مردود مالي مجز لكثير من دور النشر التي عرضت عليها المخطوطة ، فنامت هناك لمدة طويلة ·

واذا كانت أهميتها للقارىء الغربي أمرا مشكوكا فيه فهي بعكس ذلك بالنسبة لقارئنا العربي ، وبخاصة الخليجي منه ، فان هذه المخطوطة ـ التي ترجمناها هنا ـ بالغة الاهمية لعدة اعتبارات ·· الاعتبار الاهم ، انها تضم بين دفتيهـــا

معلومات جديدة يعرفها القارىء العربي لاول مرة وكان قد عايشها كاتب المذكرات · فهو هنا يصف مجموعة من الحوادث التاريخية التي خبرها عن قرب ، وسجلها بأيامها وزخمها ·

ورغم ان هذه المذكرات تبدو للقارىء في أول الامر وكانها ذكريات كتبت كيفما اتفق من شخص «يهوى» الكتابة ويمتهن «المطب» والتبشير ، الا ان الملاحظ المدقق يمكن أن يتعرف على رموز القيادات البشرية التي تصدت للعمل السياسي في ذلك الوقت في الكويت وما جاورها، فهو يصف رجالا قابلهم سواء من الكويتيين أو من رجال حكموا بعضا من اقطار جزيرة العرب ، وسجل لنا بكل أمانة ردود أفعالهم كما شاهدها على كثير من الموضوعات · فقد وصف مثلا الشيخ مبارك حاكما فقال كما كان يراقب « وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لأي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة او حتى بجواد للركوب، اما المسنون المقعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة » كذلك وقد وصف « يوم الاحد الدامي الذي عاشته الكويت في العاشر من اكتوبر ١٩٢٠ والذي كان يوم معركة الجهراء الشهيرة ، ووصف الاستعداد للحرب وتلقي أبناء القتال ، وحال المدينة الصغيرة آنذاك وهي تتوقع بين فينة واخرى دخول المحاربين المهزومين وخلفهم جموع المنتصرين ينهبون المدينة الصغيرة ، وقبل ذلك وصف عملية بناء سور الكويت الذي كان من المفروض أن يحمي المدينة من الغزو ،وقارن بين هذا السور وكلمة مبارك الصباح عندما قال « ان الكويت لا تحتاج الى سور ·· انا سورها ·· » ·

ويذهب الدكتور ماليري في سرد ذكرياته عن الفترة التي عاشها في الخليج (البحرين والكويت بين عام ١٩٠٧ و١٩٤٧

الفترة التي كتبت عنها المذكرات) فيأتي على حوادث وقصص شارك فيها او رآها بعينه ويصف ذلـك المجتمع البسيط الذي غدا في يومنا هذا مجتمعا معقدا تجتاحه عوامل التغير ــ فكان من الضروري معرفة ما كان عليه الســـابقون لاجراء مقارنة يستفيد منها الباحثون في المستقبل ·

وهنا من الضروري أن نبين ان كاتب المذكرات قد انساق في بعض من ملاحظاته حول تعميمات كان الاجـــدر به أن لا ينساق وراءها وهي تارة تعميمات يمكن اعتبارها سلبية وتارة تعميمات يمكن اعتبارها ايجابية ــ ولكن في الحالتين يجب التحفظ عليها ، وهي لا تغيب عن بصيرة القارىء الحصيف ·

ولقد حاولنا في هذه الترجمة أن نورد مـــا قصد اليه الكاتب من معنى بالدقة التي تسمح بها الترجمة دون المساس بسياق وسلاسة السرد ــ ما امكن ــ كما اننا جربنا وضع بعض الملاحظات في الهوامش والتي اعتقدنا ان الكاتب قد جـانب الصواب فيها اما تاريخيا أو من حيث المعلومات ·

لقد كان واضحا من خلال سرد الكاتب لمذكراته ان بقاءه وبقاء الكثيـــــر من امثـــاله من المبشـرين ــ في خليجنـــا العربي ــ كان في حقيقته ذا دافع ديني ــ وقد ذكره دون تحفظ في اكثر من موقع من خلال السرد للاحداث التي شهدها ــ ونحن بدورنا ــ عندما نتحفظ على هذا الدافع نعترف ان الارسالية التبشيرية التي غزت منطقة الخليج منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت خدماتها حتى حوالي منتصف هذا القرن في بعض الاقطار الخليجية ، وما زال البعض منهـــا قائما ــ كما في البحرين ــ قد أدت لمجتمعات الخليج خدمات جليلة وبخاصــة في مجال الصحـــة ــ وبشكل محدود في التعليم ·

كما انها ولاسباب واضحة قد فشلت في المهمة الرئيسية غير المعلنة وهي التبشير ·فقد ذكر امين الريحاني هذا الموضوع في كتابه ملوك العرب ، عندما لاحظ خلال زيارته لمنطقة الخليج في عشرينيات هذا القرن ـ وهو المسيحي ـ ضعوبة انتشار المسيحية ، واقترح أن تقتصر خدمات هذه الارساليات على التعليم والصحة فقال (لست كما يعلم القارىء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشيز بالاديان ولكن في البحرين معهدا امريكيا ديني الاصل طبيا وتهذيبي العمل ، وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ، ومدرسة ـ كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة ـ ومستشفى وصيدلية يديرها طبيبفاضلوبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويثبتن عملا لا قولا روح التهذيب والارتقاء ··· ولكن هذه الرسالة في **البحرين والكويت والبصرة** تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لو اقلعت عن التبشير وحصرت ما لديها من اسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية ذلك لان المسلمين وخصوصا العرب منهم راضون رضى عجيبا بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلا »(١) ·

وقد كان استخلاص الريحاني في اوائل العشرينات حقيقة لا تقبل الجدل فقد كان التبشير ذاته عسلا صعبا لم يستطع أن ينفذ الى جزيرة العرب · ولكن هؤلاء الاطباء الذين عملوا في هذه الارساليات لا شك قد أدوا لنا خدمات جلى ليس في عملهم الطبي فقط وانما في عملهم الادبي ايضا ·

فواحد مثل الدكتور صامويل زويمر ZWemer, S. m. الذي كان من الرواد الاوائل من المبشرين في هذه المنطقة قد

---

(١) امين الريحاني : ملوك العرب ـ مجلد ٢ ـ الصفحة الخامسة ١٩٦٧ ص ٢١٢ ·

ترك لنا عملا رائعا في مطلع القرن حول مجتمعات جزيرة العرب في عمله ذائع الصيت ARABIA: THE CRADLE OF ISLAM والذي صدر في نيويورك عام ١٩٠٠ ٠

ثم بعد ذلك مؤلف آخر نشر في سنة ١٩١٥ بعد وفاة مؤلفه وعنوانه « **الطفولة في البلاد الاسلامية** » «Childhood in the Moslem World» ويعد من نفائس الكتب حول الطفولة كتبه مبشر في أوائل القرن ٠

كما ان طبيبـــا آخر هـــو الدكتور بول هـــــريسون Paul W. Harrison والذي ترك لنا تحفتين رائعتين الاولى في كتاب « العـــرب في دراهـــم » The Arab At Home والذي نشر في نيويورك عام ١٩٢٤ ، ثم كتـــاب « طبيب في جزيرة العرب » Doctor in Arabia ونشر في نيويورك عام ١٩٤٠ ٠

وفي الكتابين عـــــدا مجموعة من المقالات القيمة كتب الدكتور هارسون عن مجتمعات الخليج وشرق الجزيرة العربية باستفاضة وشرح الظروف الاجتماعية وطرائـــق معيشة هذه المجتمعات ، وسبل حصولها على الرزق ٠ لقد أسست الارسالية العربية) The Arabian Mission والتي هي تابعة للكنيسة البروتستانتينية الهولندية في أمريكا مجموعة من المراكـــــز التبشيرية في مقصدها والتعليمية والطبية في ممارستهـــا ـ اسست مركز لها في البصرة والبحرين والكويت وعمان وهي تهدف الى محاصرة جزيرة العرب بهذه المراكز وتطمح بعـــد ذلك الى غزو الاسلام في عقر داره ـ ولكنها ـ كما نعرف الان ـ فشلت في ذلك ـ ٠

الا ان من بعثتهم هذه الارسالية كما ذكرنا قد ألفوا الكتب أو نشروا ابحاثا مستفيضة في المجلة التي اسستها «الارسالية

العربية» والتي كـــان اسمها في البداية «الرسالة العربية ، رسائل ربع سنوية من الميدان » ثم غيـــرت الى اسم جديد هو « العربيــة المنسية » Neglected Arabia ثم غير الاسم مرة اخرى الى « العربية تنادي » Arabia Calling ثـــم غيرت اخيرا الى «مجلة العالم الاسلامي» Moslem World وقد نشرت في هذه المجلة على اختــلاف اسمائها كثيـــر من المقالات والدراسات حول جزيرة العرب والخليج · وبالرغم من استمرار هذه المجلة الاخيرة الا ان المحاولة التبشيرية قــد اعلن عن سقوطها في كتاب نشر عام ١٩٣٨ لكاتب مبشر هو ستورم هارولد « بلاد العرب الى أين ؟ »
Storm W. Hardls. «Whither Arabia»

وبقي في النهاية الاتجاه الى رصد هذه المحاولات التي تمت فيثلاثة ارباع قرن تقريبا وصرف عليها الكثير، وانشئت من اجلها المستشفيات والمدارس · أن رصـــد هذه التجربة ـ تجربة التبشير في الجزيرة والخليج ـ ومردوداتها الاجتماعية والسياسية امر متروك لباحثينا الشباب ـ وما هذه المحاولة الا لبنة صغيرة في بناء كبير يحتاج البدء فيه الى جهود كثيرة·

د· محمد الرميحي

الكويت قبل النفط

مذكرات س. ستانلي ج. مالري

الطبيب في البحرين والكويت

١٩٠٧ ~ ١٩٤٧

-١-

فترة الأرسالية فى البحرين

في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٠٧ وطأت أقدامنا أرض الجزيرة العربية لاول مرة · وما تزال صورة دخولنا ميناء مسقط الجميل عند بزوغ الشمس واضحة في ذهني · وقد طالعتنا الحصون البرتغالية ، التي بنيت في القرن السادس عشر ، من فوق المرتفعات الصخرية لهذا الحوض البحري ، وحدقت بنا الجبال الجرداء السوداء · وكانت طيور الحدأة والنورس تطير فوق رؤوسنا وهي تزعق · وحالما رست السفينة في الميناء اطلقت طلقة مدفع واحدة لاعلام اهالي مسقط بأن البريد قد وصل ورد أحد الحصون التحية بطلقة مدفع مماثلة ·

وكانت الجوانب الصخرية للميناء مغطاة بأسماء السفن التي كانت تزور مسقط لسنين عديدة · ومسقط فريدة في هذا الامر ، وتشكل نقطة استراتيجية في تاريخ ارساليات التبشير· فقد زارها هنري مارتن عام ١٨١١ · كما ان المطران فالبي فرنش ، عضو الجمعية الانجليزية للارساليات الكنسية مات في هذا المكان عام ١٨٩١ ، بينما يرقد جورج أى· ستون ، عضو الارسالية الامريكية العربية ، في نفس المقبرة في كهف صخري قريب من الساحل وقد عمل هنا بيتر زويمر ، ولكنه رجع الى بلاده عام ١٨٩٨ نتيجة مرضه ، حيث توفي في أحد مستشفيات

نيويورك ٠ وقد كان مقدرا للدكتور شأرون ج٠ تومس الانضمام الى مجموعة المقبرة الصغيرة ، ولكن تلك الحادثة المحزنة التي وقعت بعد ذلك بسنوات كانت ما تزال في عالم المجهول في مطلع عام ١٩٠٧ ٠

وقد كان آل كانتين أول المبشرين الذين رحبوا بالسيدة زوجتي وبي شخصيا ٠ وتجدر الاشارة الى ان السيد كانتين كان أحد رائدي الارسالية الامريكية العربية وكان الرائد الاخر هو الدكتور صموئيل م٠ زويمر ٠ فقد كان جيمس كانتين أول عضو في الارسالية يبحر من أمريكا الى الجزيرة العربية وذلك عام ١٨٨٩ ٠

وقد أمضينا اسبوعين مريحين في مسقط ٠ وتشجعنا كثيرا لحديث السيد كانتين عن جولاته في الجبال المحيطة بنا حول مسقط ، وعن رحلاته الى الوديان الخصبة خارجها ، وعن علاقاته بشعب عمان المضياف ٠ وقد كانت السيدة كانتين مضيفة لبقة ، وقامت بتقديم زوجتي « بسي » الى النساء العربيات ٠ وقد تلقينا اول دروس في اللغة العربية في مسقط ، حيث اختار استاذنا ، وهو انسان ينقصه الخيال ، الفاتحة والصلاة لتكون أول دروسنا بالعربية برغم صعوبة كلماتها ٠

وقد قضيت بعد ذلك فترة شهرين من عام ١٩٤٢ في مسقط ومطرح مع آل ديكستارز ومع ولز توماس ابن شارون تومس ، عرفت خلالها حقيقة الجهد الكبير الذي بذله الرجلان، فقد زارا من الاماكن النائية ما لا يتوقع المرء أن يزوراها ، وتركا في كل مكان زاراه أثرا طيبا وذكرى حميدة ٠

ووصلنا في أواخر شهر يناير (كانون ثاني) الى البحرين، وهي مجموعة جزر اللؤلؤ التي قام الدكتور صموئيل م٠

زويمر باول عمل رائد فيها • وقد كانت البحرين سنة ١٩٠٧ مكانا بائسا الى اقصى الحدود ، رغم انها لم تكن بنفس البؤس الذي عرفه زويمر عندما عاش هناك في أوائل التسعينات من القرن الماضي • وقد سمعت أن زويمر أحضر أول كرسي وأول شمسية الى البحرين • وربما لا يكون هذا الكلام صحيحا ، الا ان له مدلولاته ، لان مما لا شك فيه أن زويمر حمل معه عصرا جديدا الى هذه الجزر • وقد تبع خطواته ، سواء من المسؤلين الحكوميين او التجار أو المبشرين ، على أساس ما بدأ به هو من مظاهر «التحديث» •

كان ميناء البحرين عام ١٩٠٧ خاليا من اية تجهيزات • فلم يكن هناك أي رصيف أو حاجز مائي ، وكان الانتقال من السفينة الى الشاطيء يتم على ثلاث مراحل • المرحلة الاولى كانت بقارب شراعي كبير يبحر حتى يتوقف بسبب ضحالة المياه ، والمرحلة الثانية بقارب أصغر يبحر حتى يتوقف هو الاخر ، والمرحلة الثالثة على ظهر حمار ينقل الركاب الى اليابسة •

وتعاني البحرين بشكل كبير من الطقس الرطب • فالرطوبة تنضح من الارض ، والطرق لا تجف ابدا في مناطق عديدة في أرجاء الجزيرة • ولم تكن هناك بلدية ، وبالتالي لم يكن أحد مسؤولا عن تنظيف الشوارع • فالقمامة متناثرة في كل مكان ، والذباب سيد الجو ، والفئران ترتع في الشوارع • أما الكلاب العوراء والعرجاء والجائعة ، والمغطاة بالبثور والقروح فكانت تقتتل فيما بينها على أي طعام نتن تجده • وكانت الحمير البيضاء الكبيرة أو الحمير الداكنة الصغيرة تعبر الشوارع ببطء وهي تحمل اثقالا على ظهورها • ومع ان بعض هذه الحمير كان صحيح الجسم قويا ، الا ان

معظمها كان ضعيفا عليلا ٠

وكان خلف المدينة العديد مـــن البرك المضحلة الراكدة الخضراء والمليئة بالبعوض ٠ ولم يكن وضع ساتر علـــى النوافذ معروفا حتى في بيوت الارسالية الامريكية ٠ وكـــانت الملاريا والتيفوئيد والديزنطاريا لا تواجه اية مقاومة ٠ امـــا الجدري فكان مستوطنا ، والسل منتشرا، والبرص أمرا عاديا٠ وكانت الطفيليات كالدود المعوي والبلهارسيا تزيد من مصاعب الحياة ٠

وقد عـــــاش أول المبشرين الذين ارسلناهم في بيوت استأجروها من العرب في ظل أوضاع غير مريحة اطلاقا ، الى أن تمكن الدكتور زويمر من اقناع صديق ببنـــاء بيت حسب مواصفات حددها له بنفسه ٠ وكان هذا البيت ، الذي يتألف في الواقع من ثلاثة بيوت تحتل ثلاثة جوانب من باحة مربعة ، يعتبر أفضل من أي منزل سابق ، وقد عشت وزوجتي فيه مدة عام تقريبا ٠

كان سجل الارسالية الامريكية العربية الصحي آنذاك سيئا ، فقد اصيبت زوجتي بالملاريا القاتلة في مسقط ، حتى كادت تشرف على الموت في يناير (كانون ثاني) ١٩٠٧ ، ومـــن الغريب انها لم تصب بالملاريا مرة ثانية مع ان البحرين كانت وما زالت تعج بالحمى بالرغم من الحملات الوقائية المكثفة ضد هذا المرض ، كما ان تواجد موظفي المستشفى جميعا في وقت واحد كان أمرا نادرا ، اذ غالبا ما يتغيب موظف أو أكثـــــر بسبب اصابته بالملاريا ٠

وكـــــان هناك عدو عنيد آخر في البحرين وهو الحمى التيفوئيدية ، وقد أقعدتني الفراش في آخر سبتمبر (ايلول) عام

١٩٠٧ · وكانت اصابتي خطيرة جدا، وأخبرني الدكتور شارون تومس الذي كان يعالجني فيما بعد انه قد يئس مــــن وضعي أكثر من مرة · ولكن العناية الفائقة التي لقيتها من كل من في المستشفى ، وخاصة من زوجتي ومن شارون تومس ، بالاضافة الى رحمة الله ساعدتني على التماثل للشفاء ، وما زلت اذكر الجهد الذي بذله شارون لساعات وهو يعمل على آلة فرنسية مزيلة لكي يصنع لي قطعة ثلج صغيرة· ·

وكيف انسى الذباب الذي كان يحط بأسراب كثيفة على المربى حالما نفتح غطاء العلبة مما كان يضطرنا الى التهويـــة باللقمة مــــن الصحن الى الفم لكي نمنع دخول الذباب الى افواهنا · وكانت توجد تحت نافذة غرفة طعامنا كومة مـــن الاقذار يلقي بها الجيران بسخاء ، تشاركهم في ذلك مجموعة من البرص · وكانت هذه الاقذار تجلب لنا الامراض ·

ودفع مرضي الشديد مجلس الامناء في نيويورك للتحرك· فقد شعروا بأنه لا بد من اتخاذ اجراء لمواجهة الاحوال غيـــر الصحية في البحرين · فقد كانت نسبة الوفيات ونسبة العلل الصحية عالية جدا · وكتب الدكتور كوب الى الارسالية فـــي البحرين يطلب تشكيل لجنة لدراسة الوضع وارسال تقرير عنه للمجلس · وقد عينت الارسالية في اجتماعها السنوي فــــي يناير ١٩٠٨ كل اطبائها أعضاء في اللجنة وعينتني رئيسا لها·

وقد رفعت اللجنة تقريرها للاجتماع السنوي واصدرت عدة توصيات ، اهمها وضع ساتر على نوافذ البيوت · ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم لم يصب اي من اعضاء ارساليتنا بحمى التفوئيد في البحرين ، رغم ان حالتي حمى صعبتين حصلتا بعد ذلك ويمكن اعتبارهما حالتي تفوئيد اوبارا تيفوئيد خفيفتين ·

ولم تفقد الارسالية اي عضـو من اعضـائها بسب الامراض المعدية الحادة منذ احاطة النوفذ بساتر ·· والاستثناء الوحيد كن موت (كرستين افرسون بينـت) بالتيفوس عام ١٩١٦ اثناء الحرب العالمية الاولى وكان لموتها اسباب سأتحدث عنها فيما بعد ·

وقد أوفدتني الارسالية في مارس وابريـل ١٩٠٨ الى الشارقة ودبي في جولة طبية · وكانت المدينتان قريبتين مـن بعضهما وتقعان على ساحل كان يعرف بساحل القراصنة ، ولكنه سمي ساحـل الهدنة منذ وقت طويـل · وقد رافقني موظفان اخران هما يوسف أمين ، المستخدم الذي يوزع الكتب الدينية بالمجان ، وهو عراقي تحول الى اعتناق المسيحية وكان جنديا سابقا في الجيش التركي ، ويوليوس عبد المسيح ، وهو صيدلي من المستشفى · (ولا بد ان بعض اصدقائي يتذكرون يوليوس الذي افتتح صيدلية في البصرة فيـما بعد ، وتوفي عام ١٩٤٥) · وقد خبرت في دبي لاول مرة حقيقة معنى العداء الاسلامي · ولكننا استطعنا القيام بنشاط طبي كثيف هناك ، بينما استطاع يوسف أميـن بصبره اللامتناهي وحنكته ان يلطف من حدة الجو العام المعادي ·

وعرفت هنا معنى العبودية ، في هذا المكان الذي يخلو من التاثير المسيحي الفعال ، وما زلت اذكر ولدا فقيرا عوقب بأن ظل يكوى بالنار في أعلى كتفه حتـى وصلت النيران الى العظم ،وأصيب بالتهاب شديد (غرغرينا) وكان قطع الذراع العلاج الوحيد الممكن ·

وقد حاول عربي في الشارقة ان يهديني الى الاسـلام وبذل جهودا كبيرةفي سبيل ذلك · وكانالرجل سمحا وصادقا

الى ابعد الحدود • وما زلت احتفظ بكتاب صلاة عربي جميل اهداني اياه ، وكتب اسمه واسمي على الصفحة الاولى منه • كان ذلك منذ اربعين عاما ، وغالبا ما اتساءل اذا كان صديقي المتحمس ما زال على قيد الحياة •

وكنت في صيف عام ١٩٠٨ مسؤولا عن ادارة مستشفى ماسون التذكاري لثلاثة شهور اثناء غياب شارون تومس في اجازة في الهند • ثم عينت عام ١٩٠٩ مسؤولا دائما عن المستشفى بعد ارسال ال تومس الى مسقط لانشاء مركز طبي هناك • وكان الدكتور تومس يتولى مسؤولية هذا المستشفى منذ انشائه عام ١٩٠٢ ، وهو أول مستشفى بنته الارسالية العربية الاميركية • وكنت دائما افكر بالمعاناة الفائقة التي عاشها الدكتور شارون تومس عندما اضطر الى ترك العمل الطبي الذي بداه من الصفر في البحرين، وذهب الى مسقط ليبدأ من الصفر من جديد • وقد تقبل مهمته الجديدة بفروسية وبنى مركزا طبيا في مطرح آلت مسؤوليته الى ابنه ولز •

وقد تعلمت في هذه الاثناء كيف اتحمل المسؤولية في البحرين ، واستفدت كثيرا من تجاربي وخبرتي هناك • وشاركني في العمل اثناء اقامتي في البحرين ولفترات متفاوتة الاطباء زويمر ، وكانتين ، وبارني والقس جيمس موردیك •

وكان الدكتور زويمر يتناول وجباته عندنا اثناء غياب عائلته لبضعة اسابيع • وكان أحد الامور البارزة في علاقاته أن العرب يقصدونه • فهو لم يكن مضطرا للجري وراءهم • ونادرا ما كانت مكتبته ، المليئة بالكتب ، تخلو من زائر أو زائرين • وكان زويمر يعطي نفسه كلية لزواره • والامر الذي يزيد من غرابة شعبيته في أوساط الناس كونه مبشرا صلبا لم يخفف من حدة رسالته لكي يجعلها اكثر قبولا لدى سامعيه •

وكنت أعتقد ان حماسه يتخطى الحدود المعقولة وأنه ربما اضر بقضيتنا اكثر مما افاد·ولكن زويمر اكتسب احترام الجميع ومحبة البعض في البحرين · وهـــو البشر الوحيد بيننا الذي يستحق اسما عربيا عن جدارة · وما زال الكبار في السن حتى يومنا هذا يتكلمون عن ضيف الله او « التائه في خدمة الله » ·

وانا اذكر مناسبة ذهبت فيها مع الدكتور زويمر واثنين او ثلاثة من زملائنا الى سوق الخميس على بعد عدة اميال من المنامة ، عاصمة البحرين · وقد توقفنـا عند مقصف شـــاي ايراني وقدم لنا الشاي*· وعندما شربنا اعدنا الفناجين الى صاحب المقصف الذي كسرها فورا والقى بقطعها على الارض، لان المسيحيين شربو منها ودنسوها·وتصدى زويمر للرجلقائلا: « الى متى ستستمرون في هذا التصرف » واخـذ حشد من الناس يتجمع حولنا في نفس الوقت · وسألــــه « اين صنعت هذه الساعة التي في جيبك ؟ وتلك الشمسية ؟ وهذا الثقاب على الطاولة ، والحطة على رأسك ؟ والثوب الذي صنعت منه عباءتك ؟ لولا المسيحيون لكنت عاريا ، ولما امتلكت أيـا من منتجات الحضارة » ·

كان تهجم زويمر حذقا ، وفهم الناس معنى كلامـــه · فقالوا « ان ما يقوله هذا الرجل صحيح » ·

وقام زويمر بأدخال الساعة العامة الى البحرين · وكان

---

* واضح ان الكاتب وقع في الخطأ الذي يقـــع فيه كثير من الكتاب الغربيين بان خلط بين الشيعة والايرانيين· لان سوق الخميس يقع في قرية الخميس المعروفة في البحرين وكل سكانها بحارنة ينتمون الى المذهب الشيعي ·

ذلك بعد ان بنى جيمس مورديك كنيسة البحرين عام ١٩٠٥ ولم ينقصها سوى الساعة·وقام زويمر خلال بضعة ايام بجمع ثمن الساعة من الاصدقاء والتجار المحليين · وقد صحبته في بعض زياراته الى المخازن والمكاتب وفوجئت بالمتبرعات السخية التي قدمت لنا · وتم طلب الساعة من مصنع الماني ، ودفعنا ثمنها (٤٠) جنيها استرلينيا ، وما زالت في حالة جيدة بعد تسعة وثلاثين عاما في ظل مناخ من اسوأ مناخات العالم · وقد أحدثت الساعة هرجا ومرجا كبيرين في البداية ، وغالبا ما كنا نشاهد حشدا من الناس يقفون امام الساعة ليسمعونها تدق كل نصف ساعة ·

وقد كانت هذه الساعة بمثابة معلم للجمهور ، لانها كانت تعمل طبقا للتوقيت الاوروبي الذي لم يكن عامة الناس يعرفون عنه شيئا · فقد كانوا وما زالوا ـ الى حد كبير ـ يستعملون التوقيت العربي* · فاليوم الجديد يبدأ في الجزيرة العربية عند غروب الشمس ، حيث يعمد الجميع الى وضع ساعاتهم على الثانية عشرة ، وهذا أمر بسيط بالنسبة لاناس يعيشون في بلد خال من الغيوم حيث يمكنهم مشاهدة الشمس وهي تغيب خلف الافق · ولمعرفة التوقيت العربي اثناء الاعتدال الربيعي والخريفي (اعتدال الليل والنهار مرتين في العام ، حوالي ٢١ مارس و ٢٣ سبتمبر) عندما تغرب الشمس في الساعة السادسة تقريبا ، ليس على المرء سوى اضافة ست ساعات الى التوقيت الاوروبي · ولكن تحويل التوقيت الاوروبي الى توقيت عربي في بقية اشهر السنة عملية تتطلب حسابات معقدة · الاوروبي على الوجه الآخر ·

....

* يشير الكاتب هنا في استعماله تعبير « ما زالوا » ربما الى سنة كتابة المذكرات في أواخر الاربعينات ·

واذكر ان بعض الساعات العامة في اسطمبول كانت عام ١٩٠٦ تحمل التوقيت العربي على احد وجهيها والتوقيت

ولا اعتقد ان في اسطمبول اليوم ساعة واحدة تعمل بالتوقيت العربي · فقد لعب الراديو دورا هاما في تعريف عامة الناس بالتوقيت الاوروبي ، لان على المرء ان يعرف التوقيت الاوروبي لكي يتمكن من معرفة اوقات النشرات الاخبارية العالمية · ويمكن الان لكل فرد في الجزيرة العربية تلقى اي مقدار من التعليم ان يعرف التوقيت الاوروبي تمام المعرفة ·

اما اوقات الصلاة الاسلامية فما زالت تحدد بموجب التوقيت العربي وعليه فان كل الجوامع تتبع هذا التوقيت ، ولا بد من التذكير بأن هناك خمسة اوقات للصلاة الاسلامية · فقبل شروق الشمس بساعتين يسمع صوت المؤذن من على المأذنة يدعو المسلمين لصلاة الفجر ، وينهي الاذان بالدعوة المؤثرة الصلاة خير من النوم ··· الصلاة خير من النوم ··

اما الاذان الثاني فياتي بعد حلول الظهر بقليل ، والاذان الثالث بعد انقضاء ثلاثة ارباع اليوم ، عندما يكون خيال المرء مساويا لطوله · ويأتي الاذان الرابع عند غروب الشمس ، والخامس بعد انقضاء ساعة ونصف على غروبها ، اي الساعة الواحدة والنصف بالتوقيت العربي ·

وهناك اعتقاد سائد في اوساط الاوروبيين ، لسبب غير معلوم ، بأن المسلمين يصلون عند شروق الشمس · وغالبا ما يقرأ المرء هذا الاعتقاد في الروايات وكتب الرحلات كما في كتاب « السير والتر سكوت » مثلا · وهذه الملاحظة غير صحيحة لان شروق الشمس ليس احد اوقات الصلاة الاسلامية · فصلاة الفجر اختبار حقيقي لتقوى الناس ، وربما

يكون صحيحا ـ في هذه الايام التي يتراجع فيها الايمان ـ ان عدد الذين ينهضون قبل الفجر لاداء الصلاة في ليلة باردة ومظلمة من ليالي الشتاء ينخفض باستمرار ٠

كان زويمر متكلما بليغا في مقر خدماتنا الطبية في البحرين ٠ وقد كانت خطبه مدروسة بعناية ، وكنت اتعلم منها الكثير ٠ وما ازال اذكر بشكل خاص سلسلة من الخطب التي القاها على المرضى عن المسبحة ٠ فالمسلم ، كالمسيحي الكاثوليكي والبوذي ، يستعمل المسبحة ٠ وتتالف مسبحة المسلم من ٩٩ حبة ، كل حبة تحمل اسما من اسماء الله الحسنى وهناك حبة طويلة خاصة تجعل العدد مئة ٠ وتعرف هذه الحبة الطويلة « بالشاهد » وما زلت اذكر زويمر وهو يحمل المسبحة في يده ويكرر بعربية طلقة « الاسم الذي لا اسم فوقه » ٠

وكان زويمر مولعا بمقارنة المقاييس والاخلاقيات المسيحية بالمقاييس والاخلاقيات السائدة في البحرين ٠ وما زلت اذكر حديثا له سمعته منذ سنين حول الاستقامة ٠ فقد بدأ زويمر حديثه بسؤال الحضور : « هل اشترى اي منكم علبة ثقاب ؟ » وبالطبع سبق لكل الحضور ان اشتروا علبة ثقاب ٠ « وهل اشترى اي منكم علبة ثقاب ناقصة ؟ » وبالطبع لم يشتر اي منهم علبة ثقاب ناقصة ٠ « وهل اشترى اي منكم صندوقا يحتوي على دزينة علب ثقاب ؟ واذا كان كذلك فهل احتوى اي صندوق على اقل من دزينة ؟ » وهنا ايضا اتفق الجميع على ان كل صندوق كان مكتملا ٠ وسالهم اخيرا : « هل سمعتم بأي صندوق كبير لم يكن مليئا بصناديق صغيرة والصناديق بأعواد ثقاب ؟ »

واجابوا حرفيا « والله لم يسمع اي منا بشيء كهذا » ٠

وهنا قال لهم زويمر : « ولكنكم عندما تشترون صندوق تمر من السوق تقومون بأدخال عصا حتى قعر الصندوق للتأكد من ان الصندوق مليء بالكامل » ·

وفهم الجميع المقصود · فقد كانوا يعرفون ان التشبيه صحيح · وبالطبع يجوز السؤال اذا كان من الحكمة ان نقارن دينهم بديننا بشكل ليس في صالح دينهم ، ولكن الامر يعتمد على كيفية اجراء المقارنة · وعلى الخطيب ان يكون متمكنا من لغة المستمعين لكي يستطيع التحدث حول أمور مزعجة دون ان يغضبهم او يجرح مشاعرهم ·

وكان زويمر يتحدث في المستوصف ذات صباح حول خطيئة الانسان الاولى ، عندما قاطعه رجل قائلا : « ان آدم لم يخطىء · فقد كان مكتوبا عليه ان يأكل من الفاكهة المحرمة · وتدل هذه الملاحظة على نقطتين في الايمان الاسلامي : اولا ان كل الانبياء بلا خطيئة ـ والمسلمون يعتبرون آدم نبيا ، وثانيا ان الانسان ليس حرا او مخيرا وانما يعيش مصيره المحتوم من يوم الى آخر · فمصيره مكتوب على جبينه ، ولا يمكنه عمل شيء لتغييره · وهذا الإيمان ظاهر أيضا في شعر عمر الخيام ·

-٢-

الخبرات الطبية في البحرين

عاصرت اثناء خدمتي في البحـرين لاكثر من خمس سنوات انتشار وبائين ساريين هما الطاعون الدبلي*والكوليرا وكان وباء الطاعون متـوقعا مرة كل سنتين تقريبا ٠ وما زال باستطاعتي استعادة صوت «شارون تومس» وهو يدخل حديقة « بيت جومان » في اوائل الصيف قائلا « الطاعون وصل » ، وبدا لي ان شارون قال الجملة بمتعة ظاهـرة ٠ وكنت وقتها جالسا على الشرفة مع زوجتي ندرس العـربية ، وكان قوله حدثا قطع الروتين اليومي ٠

والطاعون مـرض مثير للاهتمـام ٠ ورغم ان علاقته بالجرذان قد لوحظت منذ العصـور القديمـة ، فلم يثبت ان برغوث الجرذ هو الذي ينقل العدوى الا في العصر الحديث ٠ فقد جاء في الفصلين الخـامس والسادس من الكتاب الاول لصموئيل (في الانجيل) ذكر الطاعون : « الصولجـان الذي ضرب الفلسطينييـن » فلو استعملـت كلمـة « التورم » او « الغليان » بدلا من الصولجان لاتضحت الصورة اكثر بكثير ٠ ومن الواضح ان المـرض كان وباء لان الفلسطينييـن كانوا

....

* الدبل هو ورم في الغدة اللمفاوية ٠

يموتون باعداد كبيرة · وقد استدعي رجال الدين والحكماء للمشورة حول كيفية التصــــرف ازاء الوبــاء · ومن الجدير تسجيل مشورتهم لانها ربما كانت المرة الاولى التي يربط فيها ما بين الجرذ والدبل في ما يعرف بالطاعون الدبلي · فبماذا نصح رجال الدين والحكماء ؟

لقد اقترحوا وجوب اعادة قوس الاله للاسرائيليين على ان يوضع في داخله خمسة صولجانات ذهبية وخمسة فئــران ذهبية · ولم يكن التمييز ما بين الفئران والجرذان واضحا في العبرية والعربية ، وحتى اليوم لا يمكنك التاكد اذا كان المرء يتكلم عن « الجرذان » او « الفئران » ·

وكانت الطريقة الوحيدة لمواجهة وباء الطاعون تعتمــد منذ اربعين عاما ــ كما هي اليوم ــ على اللقاح او التطعيم · وقد ادى استعمال لقاح « رافكين » الشهير الذي اكتشف في الهند الى انقاذ ارواح معظم المصابين بالوباء· وكانت الجرعة في ذلك الحين خمس سنتيمتـــــرات مكعبـــة للرجل واربــع سنتيمترات مكعبة للمرأة ، وكان اللقـــاح يعطى في العضل · وكان اللقاح ساما جدا ويحدث ردود فعل حادة في الجسد · وقد امرضني اللقاح عندما اصبت بالطاعون ، فانتفخت ذراعي الى ضعف حجمها العادي ، واصبت بالهذيان ليلة كاملة ·

وكان الناس عنـــد ظهور اول اشــــارة تدل على قدوم الطاعون ــ يتفحصون باطن اذرعهم وحول افخاذهم بقلق بحثا عن التورمات ، وخاصة اذا صحبتهــا حرارة · ولم يكن من السهل حث موظفي الارسالية على التطعيم الى ان تعلم الناس درســـا لا ينسى في احدى السنيـــن · فقد كان كل موظفي الارسالية في ذلك الوقـــت يسلمون انفسهــم لحقنة التطعيم باستثناء البستاني ، الذي رفض التطعيــم قائلا انه يثق بالله

وعندما ياتي اجله فلن يؤخره شيء · وقد اصيب البستانـــي بالطاعون بعد ايام قليلة ومات · وكان هو الموظف الوحيد من موظفي الارسالية الذي اصابه الطاعـون · ولم يضع الدرس هباء ·

واستيقظت زوجتي ذات ليلـــة على صوت الاذان وهو ينطلق من عدد لا يحصى من سطوح البيوت · وكان هذا شيئا فريدا لم اعهده من قبل · فالاذان ينطلق خمس مرات في اليوم بحسب الاوقات المحددة للصـلاة من الجوامع فقط وليس من سطوح المنازل · وسالنا في الصباح عما حدث ، فقيل لنا « كنا نصلي لله لكي يبعد الطاعون عنا »

وقلت لهم « لكنكم تؤمنون بالقدر وبعدم امكانية عمل اي شيء لرده » ·

واجابني احدهم جوابا ما زال يطن في اذني بعد اربعين عاما : « ماذا نستطيع ان نفعل ؟ » ·

وحقا ماذا يستطيعون ان يفعلـــوا ؟ فالانسان يلجا الى الله في الظروف الصعبة بغض النظر عن عقيدته الدينية ·

ولنعد الى الجرذ الآن · فقد كانت اول علامة على وجود الطاعون منظر الجرذان الميتة في الشوارع وفي البيوت · وقد كانت هذه اشارة متاخرة فعلاً · فالجـــرذان تمــرض اولا ، وعندما تموت تكون براغيثها قد غادرتها · ورغم ان براغيث الجرذان لا تعيش على الانســـان فانها تفضـــل ان تتغذى من الانسان بدلا من ان تموت جوعا · ولم يكن عامة الناس يعرفون كل هذا ، لكنهم كانوا يعرفون انه عندما تجـر الجرذان نفسها بضعف لتموت على الشوارع يكون الطاعون قريبا ·

وما زلت اذكر ليلة مقمـــرة استيقظت خلالها وشاهدت جرذا يحاول تسلق المغسلة بصعوبـــة ٠ (فالجرذان المصابة بالحمى تبقى دائما عطشى) ٠ ولم يتمكن الجرذ الضعيف من تسلق المغسلة فسقط على الطـــاولة ميتـــا ٠ وقفزت فورا من فراشي ، وامسكت الجرذ بكماشة وحملتـــه الى الشرفة ، ثم سكبت عليه كاز المصباح واشعلت فيه النار ٠ وبعد ان اصبح الجرذ رمادا ، اخذت حماما وارتديت ثياب نوم نظيفة ٠

اما وباء الكوليرا فقد كان مخيفا اكثـر من الطاعون وكان يجتاح البحرين كما تجتاح النيران الغابة ، ويقتل مئـات من الناس في بضع ساعات ٠ ويتهاوى الشخص على الطريق ليكون بعد وقت قصير في القبر ٠ وكان الرعب من تلك الصورة يوهن المعنويات لدى السكان ، فقد سبق وفنيت اكثر من عائلة بكاملها ، اذ دخلت اكثر من بيت كان كل من فيه من الرجـال والنساء والاطفال امواتا ٠

وكان من الصعب دفن الجثث ٠ فالجميع كانوا يرفضون لمس الجثث ٠ والجميع كانوا يرفضون البقاء في المقبرة مدة حفر قبر بعمق مناسب ٠ وكانت النتيجة حفر حفر غير عميقة ولا تكاد تغطي الجثث٠ وكانت الكلاب تقوم ليلا بنبش الجثث، ولا يحتاج ما يحصل عند ذلك الى وصف٠ وكانت المقبرة تقع خلبف بيت ارساليتنا الجـديدة ، وعندما كانت تهب الريح من المقبرة باتجـــاه البيت كان يصبح السكن فيـــه صعبا وغير محتمل ٠

ولقد تخلصت البحـــرين منذ زمـن طويل من الطاعون والكوليرا ٠ فقد تم القضاء على الطاعون بواسطة الخدمات الطبية والوقائية ، واختفـــت الكوليـــرا منذ بدأت الآبار

الارتوازية تزود المدينة بمياه الشرب ، ولم يعد الناس مضطرين لشرب المياه السطحية · واخر مرة انتشر فيها الطاعون او الكوليرا في البحرين كانت منذ عشرين عاما تقريبا ·

وفي مجال الحديث عن الامراض سأتعرض باقتضاب الى مرض الجدري الذي كان يستوطن البحرين · وكانت هناك دائما بعض حالات الجدري المخفية هنا او هناك · فقد كان ينظر اليه على انه « من الله » فاما الشفاء منه او الموت به · ولم يكن احد ليستدعي الطبيب اذا اصيب بالجدري · فلم يكن هناك علاج له · ولم يطلب مني طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية معالجة الجدري الا في حالات نادرة جدا

ومن الارجح ان الجدري هو السبب في نسبة عالية من الاصابات بالعمى في الجزيرة العربية · وكان من الممكن حتما حماية هذه العيون لو انها عولجت وابقيت نظيفة اثناء الاصابة بالمرض ·

والتطعيم ضد الجدري منتشر حاليا في اوساط الناس ، ونحن نأمل بثقة ان يختفي لدى الجيل القادم منظر الوجه المنقور بالجدري والعينين اللتين لا تبصران · ولكن يجب الا نكون متفائلين اكثر من اللزوم ، فخلال الثمانية عشر عاما الماضية كانت الكويت عرضة لوباء جدري خطير (عام ١٩٣٢ على ما اذكر) قتل ثلاثة آلاف شخص على الاقل ، وقضى تقريبا على كل الاطفال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ثلاث وعشر سنوات ، بالرغم من وجود حملة تطعيم مكثفة · وقد ساعد هذا الوباء على ضعف الثقة بالتطعيم مؤقتا ، ولا عجب في ذلك · فعلم الاوبئة لم يصبح علما بالمعنى الصحيح حتى الآن ·

وما زالت احدى الحالات الطارئة القديمة راسخة في

ذهني · فقد ضربت البحرين ربما اسوأ عاصفة في تاريخها : مزيج من الرعد والبرق والامطار الغزيرة والرياح العاصفة · واضحت المدينة كالبحيرة · وقد تمـــزقت اعداد كبيرة من الاكواخ المصنوعة من الحصـــر ، بيـوت الفقراء ، وحملـت الرياح بعضها مسافات بعيدة · ولحـــق الضرر بكل بيت في المدينة · وتسربت المياه من كل سقف · وتمـــزق علم الشيخ وتكسرت ساريته الى اثنتي عشرة قطعة صغيرة وكأنه عود معكرونة · ولكن العلم المرفـــوع امام منزل ممثل الحكومـة البريطانية صمد أمام العاصفة ، مما ادى الى انتشار بعض الخرافات حول هذه الظاهرة ·

وتم اعداد علم جديد ليحـــل محل العلم الذي كسرتـه العاصفة · واعدت لذلك حفلة رسمية اطلقت المدفعية اثناءها تحية للعلم · وكان المدفع الذي استعمل في اطلاق التحية من النوع الذي يحشى حشوا ، ويرجـــع تاريخـه الى ايام غزو البرتغاليين للبحرين · وكان مـن الضروري تنظيف ماسورة المدفع بعد كل طلقة لازالة فتات البارود الذي علق بها ·

ولم يقم ملقم المدفع في احـــدى المرات ، بادخال قطعة الاسفنج الى نهاية الماسورة لتنظيفهـــا ، مما ترك فتات بارود صالح فيها · وعندما وضع قنبلة جديدة في المدفع انفجر المدفع فورا · واصيب الملقم بجروح بليغة وفقد عينيه ، وزالت بشرة وجهه كلها تقريبا ، ونزف الدم من انحاء جسمه بغزارة ·

وقام زملاء المصاب فورا ، كاسعاف أولي ، بذبح خروف اسود وسلخوا جلده بسرعة ثم لفوه به · وقد احضر المسكين بهذه الصورة الى المستشفـــى · وقد يبدو الامـر غير قابل للتصديق، ولكنه ظل ثمانيا واربعين ساعة على قيد الحياة · وقد كانت درجة حرارته عند وفاته اعلى درجة حرارة لمستها في

حياتي · لا اذكر الآن كم كانت بالضبط ، انما احسب انها كانت ١٠٨ درجات مئوية تقريبا ·

وسأتحدث الآن عن الامراض الناتجة عن الحشرات الطفيلية · وقد انتشر احد هذه الامراض في البحرين منذ اربعين عاما ، وكانت له اسماء عديدة ، فقد سمي «دودة غينيا» «دودة لنفا» ، «دودة زنجبار» ، و «بيوك» او «فيوك» · وكان اسمه العلمي حينئذ دراكنكواس مدينتسيس Dracunclus Madinensis وتبن فيما بعد انه ينتمي الى فيلاريا Filariae Medinensis · وسيرة حياة هذه الحشرة الطفيلية مثل باقي الطفيليات ، ممتعة بشكل خاص · فالمريض ياتي الى المستشفى ويشكو من تقرح ينز اوساخا ويكون في الجزء السفلي من الساق عادة ، او فوق القدم في الحالات الاسوأ · ويظهر الفحص دودة بيضاء لماعة تشبه vermicelli قابعة في التقرح ، ويطل جزء منها · ويقوم الطبيب بلف الجزء الظاهر من الدودة حول عود ثقاب لكي لا تتمكن من التراجع الى داخل نسيج الساق · ومن المستحيل عادة سحب الدودة خارج الساق ، خاصة اذا كانت ملتفة حول الاوتار كما هو الحال عند خروج الدودة من باطن القدم مثلا · وهكذا فان العلاج المعروف هو لف جزء صغير من الدودة كل يوم حول عود ثقاب الى ان نتمكن من اخراج الدودة كلها ·

ويصل طول الدودة المكتملة النمو الى ١٨ بوصة (٤٥ سنتيمترا تقريبا) · وتكون هذه الدودة عادة انثى وتترك جسم الانسان من اجل وضع اجنتها الحية ، اذ انها لا تضع بيوضا · ولكي تعيش هذه الاجنة يجب ان تلقى في الماء · وقد تدبرت الطبيعة هذا الامر بعناية · فالمريض يذهب الى البئر بصورة منتظمة لاخذ الماء ولغسل تقرحه ، واثناء غسل تقرحه تعود

اجنة عديدة من ساقه الى البئر دون ان يدري · ماذا يحدث للجنين حينئذ ؟ بعد سقوط الجنين في الماء يبتلعه برغوث الماء* وهو حيوان اشبه بالسرطان (السلطعون) · ويبدأ الجنين اولى مراحل نموه داخل برغوث الماء · واثناء قيام الناس بشرب ماء البئر يبتلعون براغيث الماء · وتهضم افرازات معدة الانسان براغيث الماء لكنها لا تهضم جنين الدودة الذي يبدأ في المعدة مرحلته الثانية من النمو · ويشق طريقه عبر حائطها ليستقر في العضل حيث يبلغ مرحلة النضوج · وعندما يصبح الدود جاهزا لوضع نتاجه يخرج من جسم الانسان من خلال بطانة الجلد في اكثر الحالات ·

وكل ما هو مطلوب لحماية النفس من هذا المرض قيام المرء بتصفية المياه التي يشربها بواسطة منديل جيب ، لان براغيث الماء تعلق بالمنديل · ولكن حتى هذا الاجراء الوقائي لم يكن متبعا · وان شك عامة الناس بهذه الوسائل امر معروف تماما · وقد انتزعت مرة احدى عشرة دودة غينيا من مريض واحد ·

وقد لا يتمكن المريض احيانا من انتزاع الدودة بكاملها واذكر مرة لاحظت خلالها شيئا يتحرك تحت جلد ذراع مريض كان ممددا على طاولة العمليات ينتظر بدء الجراح باجراء العملية · وحالما تم تخدير المريض قمت باحداث شق بسيط في ذراعه واخرجت دودة غينيا كاملة · وتقبع هذه الدودة الآن في وعاء في احد المتاحف ·

....

* برغوث الماء حيوان مائي ذو عين ضخمة متوسطة الموضع هي في الواقع عين مزدوجة (المترجم) ·

أما حالات الاصابة بدودة غينيـــا في البحرين اليوم فمنتشرة بين الاغراب ، خاصة من بـــلاد فارس · وقد ساعد اكتشاف البئر الارتوازي على قهر هذه المشكلة في البحرين ، لان عدم ابتلاع الناس لبراغيث الماء اثناء شربهـم يحول دون وصول دودة غينيا اليهم ، ولان برغـــوث الماء لا يستطيــع الوصول الى منابع الآبار الارتوازية على عمق مئات الاقدام · وبخروج براغيث الماء من الصورة تكسر الحلقة ويقهر المـرض وينتهي انتشاره · ويبقى فقط المرضى الذين يحملون المـرض ويحتاجون الى علاج ·

ولدي سبب وجيه يذكرني باحدى الجراحات الاولى التي قمت بها · وكانت العملية تتعلق بمرض قدم مادورا Madura foot ،وهو مرض محزن يسببه نوع من الفطر يبدأ بالجلد ويتجه الى اسفل الجسم والى داخله حتى يحول كل الانسجـة الى مجموعة من الانفاق والجيوب المليئة بالقيح ذي الرائحة الكريهة · وقد وصل المريض من ساحل القراصنة يصحبه ستة رجال اشبـــه بالمتوحشين مـدججين بالخناجر والبنـــادق والمسدسات · ولم يتخل اولئـــك الرجال عن سلاحهم لحظـة واحدة ، واعتقد انهم يشعرون بانهـــم عراة بدونه · وعندما اخبرتهم انه يجب قطع قدم المـريض وافقوا فورا · وقالوا ان هذا ما جاءوا من اجله، وان علي قطعها فورا ·وشرحت لهم ضرورة ترتيب بعض الامور ايضا فوافقوا على مضض فالعربي متسرع وفوري ويكـــره الاستعداد او التحضير لاي امر · « فالقدر » يقرر مصير الناس والاشياء في هذا العالم · وليس على الانسان الا الاستسلام لذلك المصير ·

وعندما حل موعد اجراء العملية كان اصحاب المريــض هناك بكامل اسلحتهم · وكانـــت تلك تجربة مخيفة بالنسبـة

لجراح مبتدىء مثلي ، ولكـن العملية سارت بنجـاح ولم تكن هناك حاجة لاستعمال السلاح · وقد تساءلت كثيرا فيما بعد عن كيفية تصرفهم تجاهي فيما لو مات المريض اثناء العملية ، او في حال حصول خلل رئيسي في غرفة العمليات · ربما كانوا لن يفعلوا شيئا ، ولكن لا سبيـــل الى التأكـد من صحة هذا الافتراض ·

كان يحكم البحرين في تلك الايام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة المشهور الذي كان قد نصب كشيخ للبلد عام ١٨٦٧* وكان حينها رجلا متقدما في السن ذا لحية بيضاء · وقد كنت واياه صديقين حميمين ، وغالبا ما كان يستدعينـــي لمعالجته ومعالجة المقربين منه · وقد باعني ارضا كبيرة خلف مستشفى ماسون التذكاري* بقيمة ٤٠٠ روبية، وهذا سعر رمزي طبعا· وربما تساوي هذه الارض ١٠٠ر٠٠٠ روبية اليوم · وقد منحني مساحة اضافية ملحقة بمنزلي ، مكنتني من اقامة ملعب للتنس في الجانب الظليل من المنزل · وكان دائما كريما في مكافاتي على خدماتي ، واعطاني العديد من اكياس الروبيات الفضية ، التي حولتها لتدعيم وضع المستشفى المالي ·

....

* نصب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكما للبحرين سنة ١٨٦٩ (المترجم) ·
* مستشفى ماسون التذكاري هـو مستشفى الارسالية الامريكية في البحرين ، وما زال قائما في نفس المكان في المنامة (المترجم) ·

-٣-

الكويت عام ١٩١١

زرت الكويت لاول مرة في يوليو (تموز) عام ١٩١١ ٠ فما الدافع لهذه الزيارة ؟ كنا ندرك لسنين عديدة ، وفي الواقع منذ انشاء الارسالية العربية الامريكية، ان الكويت مدينة ذات اهمية استراتيجية عظيمة ٠ فهي بموقعها ما بين العراق في الشمال والاحساء في الجنوب تسيطر على راس الخليج « الفارسي » وتتمتع بميناء ممتاز ، ربما كان الميناء الطبيعي الممتاز الوحيد على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ٠

وقد كانت الكويت ، حتى عام ١٩١٨ ، البوابة الكبيرة لنجد والداخل ٠ وكانت قوافل الجمال الكبيرة تنطلق منها باستمرار وهي تحمل منتجات العالم الى اسواق الرياض وبريده وعنيزة وشقراء ٠ فقد كانت كل المواد والبضائع التي يحتاجها العربي في الداخل ، مثل الكاز والثقاب والاواني المعدنية والساعات ، تصله عبر الكويت ٠

وكانت الكويت ايضا مركزا عظيما للغوص بحثا عن اللؤلؤ، وكان فيها عام ١٩١١ ثمانمئة مركب يعمل على ظهورها ٠٠٠ر٢٠ رجل يعملون في مجال الغوص ٠ ولم يكن كل هؤلاء مواطنين كويتيين ، فقد جاءوا من كل حدب وصوب ٠ ولكن

بناء المراكب واعدادها وتموينها لرحلات الغوص يتم في هذه المدينة الكبيرة ، بمينائها الممتاز · وكان يجري فيها تنظيم كل ما يتعلق بعملية الغوص بحثا عن اللؤلؤ ·

وكانت مراكب الغوص تشكل جزءا هاما من قوة الكويت البحرية ، ولكنها تعتمد بدورها على الاسطول الرائع من البواخر المبحرة باتجاه الهند وحتى زنجبار للمتاجرة حاملة التمر من البصرة وعائدة بالاخشاب والقهوة من ملابار ، والبضائع المختلفة من بومباي ، والارز من كراتشي ، واعمدة للسقوف من شرقي افريقيا ·

وكان النشاط الساحلي كبيرا ايضا · فقد كان هناك اسطول كبير من القوارب الصغيرة يتولى امر التجارة الهامة مع موانىء الخليج «الفارسي»· واذا اضفنا الى ذلك اسطول صيد الاسماك والسفن التي تبحر ما بين الكويت وشط العرب لتزويد الكويت بمياه الشرب ، يتجمع لدينا اسطول كبير من السفن ·

ويبلغ طول ميناء الكويت ثلاثة أميال وقد بنيت على طول هذه المسافة ارصفة ممتازة يمكن للسفن المبحرة الرسو فيها في مختلف الاحوال الجوية · ولولا هذه الارصفة لكان النشاط البحري في الكويت مستحيلا ، لان الساحل مفتوح أمام كل الرياح ، وأمام الامواج العالية التي تحركها هذه الرياح ·

ويبلغ علو المد ١٢ قدما على ما اعتقد · وهذا يعني ان السفن تكون مرتفعة وجافة اثناء الجزر مما يجعلها في وضع مثالي للتنظيف والتزييت واغلاق الشقوق · والسفن الكويتية ذائعة الصيت في الخليج « الفارسي »· ، ولا يجارى صانعوها في المهارة · ونادرا ما يقوم صانعو السفن بوضع رسومات

ومخططات لبنائها ، وكانت خطوطهـــا وتناسقهـا وانحرافها العلـــوي طوليا (من وســـط السفينة الى كل من طرفيها) من الدقة بحيث تصل الى درجة الروعة والاتقان ٠

وكانت الكويت عام ١٩١١ مدينة طويلة وضيقة مبنية على الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت ، يتراوح عدد سكانها آنذاك بين اربعين الى خمسين الف نسمة ٠ اما طول الكويت في تلك الايام فكان ميلين ونصف ٠ وكانت المدينة كلها عربية ٠ وحتى الحمالين كانوا عربا ٠

وكان يراس البلد الكهل العظيم الشيخ مبارك الصباح ٠ فهو صانع الكويت الحديثة ، وهـــو رجـل يتمتع ببعد الرؤيا والمقدرة الكبيرة ٠ وكانت تساعده حكومة قديرة وكان النظـام والهدوء سائدين ليـــلا ونهارا ، وقد امتـــد نفوذ مبارك الى الصحراء ٠ وكان شيخ العشيرة الحقيقي ٠

ويدين الملك ابن سعود العظيم بالفضل في تدريبه المبكر للشيخ مبارك ، لانه امضى حداثته في الكويـــت ٠ وقد احب مبارك ذلك الشاب الصغير وقام حتما ببلورة شخصيته في تلك الفترة الهامة من حياته ٠ ولا نبالغ اذا قلنا انه لولا مبارك لما تمكن ابن سعود من ان يصبح الشخصيـــة التاريخية القادرة والذي يعترف الجميع اليـــوم بانه كان اعظـم عربي منذ ايام الخلفاء الراشدين ٠

وما زلت استرجع صورة مبارك باعجاب عظيم ٠ وكأني به على الشرفة جالسا في مجلسه ، والبحر الى يساره وكبـــار رجال المدينة الى يمينه في صف طويل يبلغ ثلاثين رجلا احيانا، يقف قبـــالة هـــؤلاء خمســـون حارسا مسلحـــا لا يـــدع انضباطهم العسكري مجالا للشـــك بولائهم المطلق وطاعتهـم العمياء للشيخ مبارك ٠

وكان مبارك في الواقع يمسك مصير الكويت بيده · كان نحيفا ، وكانت عيناه ثاقبتين تخترقان محدثيه ، وتمكنانه من الحكم عليهم بدقة ، وكان وجهه قويا يعكس قوة الارادة والتصميم ، كان وجهه وجه قائد بالسليقة · وكان بعيد النظر يستبق رعاياه في النظر الى المستقبل ، يلم بالشؤون العالمية بشكل مدهش في ذلك الوقت · وقد كان مبارك محظوظا بالرجال المحيطين به ـ ارستقراطيين من افضل العرب ـ اذ كانوا يعرفونه حق المعرفة ويثقون به ·

وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية· وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لاي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة او حتى بجواد للركوب · أما المسنون او المقعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة · وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة نقيب البصرة ، السيد رجب ، الذي كان صديقا حميما لمبارك والشخصية الكنسية الرئيسية في البصرة (وكبير كهنة البصرة) · وكان النقيب ـ في مناسبات خاصة فقط ـ يقود عربة فخمة يجرها حصانان · وهكذا فقد كان مبارك « يكرم الكنيسة اكثر مما يكرم الدولة · ولكن النقيب كان يمشي في معظم الاوقات ·

وكان من عادة الشيخ مبارك ان يقوم بجولة رسمية في السوق بعد ظهر كل يوم ، حيث يركب عربة جميلة من طراز « فكتوريا » يجرها حصانان بديعان ، ويسير بتمهل عبر الاسواق ، ويتوقف امام المقهى القديم (الذي هدم الآن) لعقد مجلس رسمي · وكان حفيده الصغير صباح يجلس على يساره في العربة وهو يرتدي الثياب المزركشة بالذهب التي كانت تضفي الروعة على الموكب · وكانت وفاة مبارك في يناير ١٩١٦ كارثة بالنسبة للكويت ·

وهناك حقيقة اخرى حول مبارك من الجدير تسجيلها ، وهي انه كان متعاليا . فقد كان هناك بيتان أو ثلاثة بيوت فقط يزورها مبارك او يقبل دعوتها للطعام . لكنه مع ذلك لم يكن معزولا عن رجل الشارع او عن البدو في الصحراء . فقد كان بمقدور اي انسان له قضية او مشكلة او طلب ان يقابله بدون مشقة .

وكان يوجد خلف المدينة وبعيدا عن البحر الخلاء الكبير حيث تتجمع قوافل الجمال المنطلقة الى الصحراء والقادمة منها . وكان يجري اعادة تصدير جزء كبير من البضائع القادمة من الهند الى نجد والداخل .

ومن المشاهد الاعتيادية في تلك الايام رؤية خمسمئة جمل رابضة في «الصفاة» وكانت اهمية الكويت التجارية تبدو جلية حتى للزائرين . وقد تجمع في ساحة الصفاة ذات مرة الف جمل .

ويحمي مدينة الكويت اليوم من جهة الصحراء سور عال له أربعة ابواب كبيرة وعليه ابراج حراسة * . وقد بني هذا السور في صيف ١٩٢٠ اثناء تولى الشيخ سالم بن مبارك سدة الحكم ، وفي وقت كان يتهدد الكويت خطر غزو سعودي يشنه قائد القوات السعودية فيصل الدويش . وقد سألت مبارك ذات مرة لماذا لم يبن سورا حول عاصمته . وكان جوابه كافيا وواقعيا اذ قال « أنا السور » .

ما قلته للآن يعتبر مقدمة غير مكتملة للكويت في الرابع

* جرت ازالة السور على اثر التوسع الذي شهدته المدينة بعد ظهور النفط .

من يوليو عام ١٩١١ • وصلت قادما من البحريـــن على ظهر مركب يصحبني طباخي الغاني المخلص والقدير• وكان وصولي في منتصف الصيف حيث الطقس حار جدا ، وكـان مفروضا على كل الركاب البقاء في الحجر الصحـي للوقاية من مرض لا اذكره الآن • وقد ســارع الممثــل السياسي البـريطاني ، الكابتن و•هـ•اى ـ شكسبير ، الى انقاذي باصراره على ان امكث وخادمي معه طيلة مدة الحجر • وقد اكد للسلطات اننا لن نغادر منزله قبل انتهاء تلك المدة • وقد كان الكابتن شكسبير احد الشباب البارزين في زمنه ، وكان موته في الصحراء عام ١٩١٦ خسارة كبيرة لحكومة صاحب الجلالة • *

....

* قتل الكابتن شكسبير وهــو في معية عبد العزيز بن سعـــود في احدى غاراته ، سنة ١٩١٦ • وقد كان كاتبا بحاثة له عدة مقالات منشورة عن جزيرة العرب (المترجم) •

-٤-

تأسيس أول مستشفى في الكويت

كانت الارسالية العربية الامريكيـــة ترغب ، قبل زيارتي للكويت عام ١٩١١ بسنتين ، في انشاء فرع لها في الكويت ٠ وقد زارها زويمر وجيمس مورديك ولكن الشيخ مبارك منعهما من البقاء طويلا فيها ٠ ولم يسمـــح لشـــارون تومس كذلك بمغادرة السفينة والنزول الى اليابسة ٠

وكان يوجد منذ مدة ، في الخزينة في نيويورك مبلغ من المال مخصص لافتتاح مستشفى في الكويت ٠ وقد قدم اقتراح اثناء الاجتماع السنوي للارسالية عام ١٩٠٩ ، حسبما اذكر ، يطلب من المجلس الاتصال بالمتبـــرع لاقناعه بتحويل المبلـغ المخصص للكويت الى بلد آخر ٠ ويسرني القول ان الاقتراح قد رفض ٠

وقام ارثر بينت ، رئيس وحدتنا الطبية في البصرة بعد هذا الاجتماع بوقت قصير بزيارة بلدة تدعى «المحمرة» وهي تعرف الان باسم «خورامشهر» ٠ وكانت هذه البلدة مقر اقامة

....

* من المعروف ان خزعل زعيم عربي ، حكـــم عربستان حتى بعـــد الحرب العالمية الاولى (المترجم) ٠

وقيادة الزعيم الايراني القومي خزعل* • وكــــان مريضا بالسكرى حيث كان بينت يعالجه • وكان يزور خزعل فـــي ذلك الحين كل من الشيخ مبارك والسيد رجب من البصرة • وقد كان خزعل والسيد رجب يحترمان بينت ويقدرانه ، فحدثا الشيخ مبارك عنه • وطلب مبارك من بنيت الذهاب الى يخته لفحص احدى بناته الصغيرات التي كانت تشكو من الم في عينيها • ووافق بنيت بالطبع ، وكشف على البنت ثم اجرى لها عملية جراحية • وقد تماثلت البنت للشفاء وسر مبارك بذلك كثيرا •

وقام بينت بعملية اخرى اكسبتنا الشهرة • فقد كان احد ابناء السيد رجب يعاني من تورم في العنق ، وقد ارسله والده الى الهند حيث فحصه عدد من الاخصائيين ورفضوا اجراء عملية جراحية له • وقد عرضـه والده على بينت الذي نصح باجراء جراحة له • ووافق والده على اجـراء الجراحة ، واجرى بنيت الجراحة بنجاح وازال التورم وكان المريض ما يزال حيا في يوليو عام ١٩٤٩ •

وقد اصبح بينت صديقا حميما للسيد رجب والشيـخ مبارك بالاضافة الى خزعل طبعا • واصبح هؤلاء الرجـــال الثلاثة الاقوياء والنافذون ميالين الى فكرة افتتاح مستشفى

للارسالية الامريكية في الكويت • وقام بينت ، في هذه الاثناء بزيارة الكويت عدة مرات وترك انطباعا جيدا هناك • وكان لديه مساعد كفء ـ عراقي مسيحي ـ تركه في الكويـــت للاشراف على مستوصف واجراء الاسعافات الاولية •

وطلب الشيخ مبارك من الارسالية الاميريكية اقامـــة

مستشفى في عاصمته · وقد ارسلت لجنة مؤلفة من جـــون فان اس وارثر بينت لمفاوضة مبارك حـــول موقـــع مناسب للمستشفى · ونتيجة لهذه المفاوضات امتلكت الارسالية قطعة ارض مساحتها ٢٧٠ x ٣٠٠ قـدم · وكانت هذه المساحـــة نواة ملكيتنا الحالية الضخمة* ·

وحالما باعنا مبارك الارض ، اصر على قيام الارسالية بايفاد طبيب مقيم · ولكن كل ما استطعنا عمله كان اقتســـام السنة فيما بين بنيت وهاريسون وبيني · وبناء على هذا الاتفاق كان علي أن اقضي جزءا من صيف عام ١٩١١ في الكويت ·

وبعد ان تركت عملي في البحرين ووصلت الى الكويت اكتشفت عددا من الامور فبينما كان الشيخ مبارك يرغب في وجودنا ، كان غالبية السكان بمن فيهم العائلات الكبيرة ـ يعارضون تماما سياسة السماح للمبشرين المسيحيين بالاقامة في مدينتهم · فقد كان استدعاء طبيب من البصرة لمعالجـــة احدى الشخصيات الهامة امرا مقبولا ، اما اقامة مستعمرة للمبشرين المسيحيين في المدينة فكانت امرا مرفوضا رفضـــا باتا ·

الا ان مبارك ظل ودودا نحوي ، يستقبلني بحفاوة عند كل زيارة اقوم بها له · وبالاضافة الى رفض المدينة لوجودنا فقد كان «الاجانب» يعتبرون ظاهرة غريبة في الكويت عـــــام ١٩١١ · وكان الجميع متشوقين لرؤية مظهرنا · وكانت هذه

* وضعت وزارة الصحة الكويتية يدها على هذا المستشفى ، وهـــو تابع لهذه الوزارة الان (المترجم) ·

التجربة جديدة بالنسبة لنا لان وجود الاجانب في البحرين كان امرا مألوفا ، اما هنا فقد كان يضايقنا لحاق الناس بنا في الشوارع ، وهم يوجهون لنا الكلام اللاذع ، ويلقـــون علينا بالحجارة بين الفنية والاخرى · وقد شعرت بجـــرح عميق وباهانة لكبريائي عندما ادركت انني اعتبر كافرا في الكويت · وتجدر الاشارة الى ان الفضولية والفظاظة كانت تبدر عن رجل الشارع (والاولاد) فقط ·

اما ابناء الطبقات العليا فكانوا متحفظين ومتكبرين ، ولكنهم لم ينزلوا أبدا الى مستوى الابتذال الرخيص كعامة الناس · وقد حافظ هؤلاء على اخلاقهم الحميدة وتأديبهـــم ولطفهم حتى وان كانـــوا يكبتون كرههم لنا · وكان عدد ضئيل منهم فظين معي ·

وقد سكنت ذلك الصيف في احد البيوت العديدة غيـر المنظمة التي كانت تشكل قصر مبارك · وكان هذا البيت قـد أعطي للدكتور «بول هاريسون» من قبل · وكان خاليا تماما من وسائل الراحة ، وحارا جدا في الصيف · ولكن لا شـك لدي بان مبارك كان يعتبره بيتا ممتازا لانه احد بيوت قصره ·

وقد اجرى بول هاريسون عدة عمليات جراحية ، وادى خدمات طبية جليلة في الكويت ، وقام باعداد مستوصف بسيط من ثلاث او اربع غرف ، احداها غرفة عمليات طولها عشـــرة اقدام وعرضها ستة اقدام · وكانت طاولة العمليات هـــي قطعة الاثاث الطبي الوحيدة لانه اخذها من مستشفى الارسالية في البصرة · أما خزانة المعدات الجراحية فكانت عبارة عن صنـــدوقين خشبيين جـــرى ضمهما بطريقـــة مرتجلة · ولكن العبقرية ، كالعادة ، انتصرت على كل العقبات واجـــرى

هاريسون عدة عمليات رئيسية وعددا من العمليات البسيطة ٠ وكانت مقدرته تنتزع اعجاب الجميع بالرغم من انه كان في بداية تجربته العملية ٠

وقد سررت بوجود القس ج٠ج بنينكز في الكويت ، وكان قد وصل اليها قبلي ببضعة اسابيع ، لانه صديق عزيز على هاريسون ٠ وقاما معا بكسب حلقة واسعة من المعارف والاصدقاء ٠ ومن حسن حظي انني شاركت في هذه الاتصالات وكنت اقضي امسياتي في زيارة المعارف والاصدقاء برفقة السيد بنينكز ٠ وقد ساعدني ذلك كثيرا في عملي ٠

ولكن السيد بنينكز غادر الكويت بعد اسبوع من وصولي وبقيت وحيدا ٠ وكنت الاجنبي الوحيد في الكويت خلال فترة اقامتي لان الكابتن شكسبير ، المعتمد السياسي ، كان خارجها ٠ وكانت تلك تجربة قاسية بالنسبة لي لانني كنت اقضي اياما دون ان اتكلم الانجليزية ٠ وقد تحسنت لغتي العربية ، ولكنهم كانوا يقولون لي انني اتكلمها بلهجة بحرانية واضحة ٠

كانت قطعة الارض التي باعنا اياها الشيخ مبارك تقع في الطرف الغربي من حدود المدينة ، على بعد ميل وربع من مكان سكني ٠ وكنت امشي اليها مرارا حيث اجلس فوق التلة وهي علامة بارزة في المكان ٠ واحاول ان ارسم في ذهني ترتيب المباني التي كنت آمل بان تشاد يوما ما ٠ وكانت حدود قطعة الارض طريفة ، اذ كانت عبارة عن اكوام من الحجارة الملقاة بشكل كيفي وحسب همة خدم الشيخ ، وبالتالي بدل ان تكون مستطيلة بدت مسبعة الجوانب ٠ وسأتحدث اكثر حول

التلة وحدود قطعة الارض فيما بعد · وقد قررت ان يبنى مسكن الطبيب فوق التلة ·

وكنت في هذه الفترة افتح العيادة يوميا ، باستثناء ايام الاحد ، وكنت اظل مشغولا جدا · وكنت اقيم قداسا ايام الاحاد لمساعدي القلائل ، ولمن يشاء أن يستمع · وكان الامر الوحيد الذي يثير مخاوفي هو تاخرنا في بناء المستشفى لانني كنت اعلم ان الشيخ مبارك قد بدا يتململ من تاخرنا في تنفيذ وعدنا · وكان التاخر يرجع الى عدة اسباب لا داعي لشرحها هنا ·

وقد عدت الى البحرين ثم سافرت الى امريكا في اول اجازة لي في ربيع عام ١٩١٢ · واثناء وجودي هناك ، تم ارسال السيد والسيدة اي · اي كالفرلي والدكتور بول هاريسون الى الكويت ·

وبدا العمل في بناء المستشفى الجديد · وكان المستشفى اول مبنى من الحديد والاسمنت يقام في الكويت · وتولى المشروع مهندسان اميركيان شابان من ان اربور ، ميتشيغان جاءا الى البصرة بهدف المتاجرة ·

وقد عرضا خدماتهما على الارسالية فتقبلناها شاكرين وقاما برسم الخرائط وتشنييد المستشفى ·

وحال وصولهما الى الكويت طلبا الاطلاع على نص عقد الشراء فوجدا ان قطعة الارض يجب ان تكون مستطيلة ، ٣٠٠ x ٢٧٠ قدما · وبعد ان شاهدا الحدود التي اقامها

رجال الشيخ ادركا انه لا علاقة بين تلك الحدود وبين المقاييس المتفق عليها في العقد • وقاما بتحديد قطعة ارضنا بعناية وشيدا زاوية من الاسمنت في كل زاوية من زواياها • ولو انهما اخبرا الشيخ مبارك بما سيفعلانه قبل ان يباشرا العمل لامكن تجنب الكثير من المتاعب •

وحال عودتي من اجازتي.توقفت في البحرين لجمع حاجاتي واثاث منزلي ثم انتقلت الى الكويت • وكان قد مضى اكثر من عام على وجود السيد والسيدة كالفرلي والدكتور هاريسون هناك ، وكانت الارسالية قد استقرت • وقد مارس السيد كالفرلي (الان دكتور) دور القس والسيدة كالفرلي دور الطبيبة النسائية ، والدكتور هاريسون دور الطبيب الرجالي وكانوا يعيشون في بيوت عربية في وسط المدينة • وكان هاريسون يسكن في المنزل الذي سكنته عام ١٩١١ ، والذي اصبح فيما بعد مستشفى • وكانت السيدة كالفرلي (الدكتورة اليانور) تستعمل هذا المنزل للخدمات الطبية ايضا • كما استأجر آل كالفرلي منزلا سكنيا لهما على بعد ربع ميل ــ وكان منزلا مريحا جدا •

وقد حصلت انا وزوجتي على بيت جديد بطريقة فريدة وقامت الارسالية باستئجاره لمدة ثلاثين عاما • كان صاحب البيت قبطانا بحريا عربيا ثريا قتل فيه امرأة ودفنها في باحة المنزل • وقد القي القبض على القبطان واعترف بالجريمة ونفي من الكويت • واستولى الشيخ على منزله • وهكذا اصبح الشيخ صاحب العقار الذي اسكنه • وكان البيت فسيحا وحسن البناء ولكن رفض اى عربي استئجاره فقد ارتكبت فيه جريمة • وكان منزلا مدنسا ، لا يتمكن المسلم

المؤمن من الصلاة فيه . وحينما عرض علي استئجاره بسعر معقول رضيت بذلك ، وعشنا فيه سنة . وبعد ان اخليناه في اكتوبر عام ١٩١٤ ، اصبح مدرسة السيد كالفرلي ومسكنا لاحد بائعينا المتجولين . وقد تم العفو عن صاحب المنزل منذ بضع سنين واعيد اليه منزله . وقد حاولت عدة مرات ان اشترى هذا المنزل من الشيخ مبارك ، ثم من الشيخ جابر ثم من الشيخ سالم ثم من الشيخ احمد . لكن الشيوخ رفضوا بيعه لي بحجة ان مالكه سيرجع يوما ما . ولم استطع ان اكتشف السر وراء هذا المنطق .

وهكذا نشأت صداقة بيننا وبين ال كالفرلي استمرت ١٥ عاما كان عملنا خلالها مزدهرا وناجحا .

وبعد ان عرفنا الناس حق المعرفة اختفى الفتور والعداء الذي كنا نقابل به لتحل محلهما الصداقة والثقة . وقد احتجنا الى جهد ووقت لاكتساب هذه الصداقة والثقة .

وبعد وصولي الى الكويت غادرها هاريسون الى بلد اخر ، ووقع علي عبء تنظيم مؤسسة طبية دائمة . وكان اول امر يجب انهاؤه هو بناء المستشفى . وقد شيد الاطار الفولاذي للبناء ، ورفع سقفه وصبت ارضيته بالاسمنت . وتم صب مستوى الارضية بشكل مغلوط مما استدعى اعادة صبها . وقد ابلغنا المهندسان المشار اليهما سابقا بأن مسؤوليتهما انتهت بانتهاء تشييد الاساسات والاطار الخارجي وان علينا - نحن الهواة - كالفرلي وانا أن نتم تشييد المبنى .

وقمت بتفحص الحدود الجديدة لقطعة ارضنا فوجدت انها قد استبعدت ثلثي التلة خارجها . واصبت بخيبة

امل لانني كنت انوى بناء منزل الطبيب فوقها • وكنت مستعدا نسبيا لتلقي هذه الصدمة لان كالفرلي كان قد كتب لي قائلا بانه قد اعيد قياس قطعة الارض ، ولكن رؤية التغيير كانت قاسية علي كما لو انني لم اتوقعه •

وقد سالت كالفرلي : «الا تعتقد ان الشيخ مبارك يعطينا قطعة الارض هذه ؟ فهي لن تفيد احدا ، اذ لن يقوم اى عربي ببناء منزل فوقنا» •

واجابني كالفرلي بان التعامل مع مبارك قد اصبح صعبا لانه يعتقد اننا خذلناه ، وبالتالي فهو لن يقدم لنا اية خدمات• كان ذلك الجواب ضربة لي • ولكنني استجمعت شجاعتي وزرت الشيخ مبارك بعد ظهر اليوم نفسه • وكان الشيخ في مجلسه وقد بدا مكفهر الوجه ومتحفظا ، لكنه استقبلني بحفاوة كافية •

وبعد تناول القهوة والسجائر وتبادل حديث عام قصير سالته ببساطة : الم تكن تفكر باعطائنا التلة كلها من ضمن قطعة الارض التي بعتنا اياها ؟ •

وسالني باستغراب : «ماذا تعني ؟»

عند ذلك اخبرته القصة ، وشرحت له ان المهندسين اضطرا الى اعادة قياس الملكية لكي تتفق مع المساحة المنصوص عليها في عقد المبيع • وانفجر مبارك قائلا : «ماذا ؟ هل تقصد انكم غيرتم حدودي ــ حدودي انا • اسمع ياحكيم ان صبري قد نفذ • لقد مضى اكثر من ثلاث سنوات على بيعي تلك الارض لارساليتكم • وقد وعدتم حينئذ ببناء

مستشفى وارسال طبيب · ولم يتم بناء المستشفى بعد والله وحده يعلم متى سيتم · اما الاطباء فيأتون ويذهبون ، ولا اعلم كم ستمكث انت ، والان تأتي لتخبرني بان حدودي قد غيرت وانني افكر جديا بالغاء كل الامتيازات التي اعطيتها لكم وباخراجكم من الكويت ·

وابلغني ان الجلسة قد انتهت · وشعر الحاضرون في المجلس ، بمن فيهم الحرس ، بتكهرب جو المجلس ، فسارعت بمغادرة المكان ·

يوجد عرف هام في القانون السياسي يقول «يجب الا تغير موقع او تزيل علامة حدود جارك · وملعون من يزيل حدود جاره» · وكان هذا عرف له مكانته في الجزيرة العربية ·

وكنت كئيبا حين وصلت الى منزلي واخبرت زوجتي بنتيجة المقابلة التي كنت اتوقع من وراتها الكثير · ولم يكن هناك في المدينة من الجأ اليه طلبا للمساعدة ، وكنت اذرع غرفتي جيئة وذهابا في الليل افكر في كيفية الخروج من هذا المأزق · وفعلت الامر الوحيد الذي بامكاني ان افعله · فقد داومت على زيارة الشيخ بانتظام دون ان تكون لدي الشجاعة على اعادة فتح الموضوع · وكان الوقت يمر وفصل البناء يقترب · وكانت ميزانيه بناء منزل للطبيب متوفرة ، وكنت تواقا لبدء البناء · وكان من المستحيل ، طبعا ، القيام باية خطوة قبل انهاء المسألة مع الشيخ · ولم نجرؤ حتى على اتمام العمل بالمستشفى وظل العمل متوقفا تماما ·

واخيرا قررت ان اجابه الموضوع وقد سألت الشيخ مبارك اثناء احدى زياراتي الدورية «هل بامكاني ان اكلمك

في موضوع هام جدا ؟ » وهز رأسه موافقا ، فتابعت « : انك تدرك بلا شك يا صاحب السمو ان اهـالي الكويت يعتبرون الارسالية مذنبة لانها اخذت ارضا لا تخصها • وهذه تهمة خطيرة • فاذا كانت التهمة صحيحة يجب معاقبة الارسالية ، واذا لم تكن فعلى سموك ان تقول ذلك علنا • ولدي اقتـراح بان تقوم سموك بزيارة قطعة ارضنا لكي يجري قياسها علنا وفي حضورك » •

وابتسم مبارك ـ وكان قد مضى وقت طويل لم اره فيه مبتسما ـ وقال ان الفكرة جيدة وانه سيزورنا • وطلبت منه تحديد موعد فاعطاني موعدا بعد ظهر بضعة ايام • وتركت مجلسه وانا اشعر بارتياح لم اعهده منذ اسابيع وسارعت لاخبار كالفرلي بالامر •

وانتظرت انا وكالفرلي طوال بعـد ظهر اليوم المحدد لزيارة الشيخ مبارك لكنه لم يحضر • وعندما زرته وذكرته بوعده ابتسم وقال «كلا لم احضر» • ووعدنا بالزيارة ثلاث مرات وخيب املنا ثلاث مرات ، وعندما وعدنا للمرة الرابعة سألته : هـل ستأتي حقـا ؟ فهـذا رابع موعـد تعطينا اياه ، اجابني بحزم انه سيحضر هذه المرة ، وشعرت اننا سنراه عندنا فعـلا •

وقد شعرت اثناء هذه المفاوضات المزعجة بان وجـود المعتمد السياسي البريطاني سيكون مفيدا اثناء عملية قياس الارض • فهو سيكون شاهدا محايدا ومقبولا من جانب الشيخ مبارك ومني • واتصلت بالمعتمد السياسي ، الذي كان مسيحيا رائعا وصديقا عظيما للارسالية وطلبت منه حضور « عملية التكييل » رسميا وتسجيل النتيجة في ملفـات مكتبه • وقبل الدعوة فورا •

وفي اليوم الموعود ، ٩ فبراير عام ١٩١٤ أمطرت السماء فقلت لكالفرلي «انه يوم ممطر ولن يحضر الشيخ» • ومع ذلك خرجت معه الى قطعة الارض وانتظرنا طويلا • وما ان كدنا نفقد الامل حتى ظهر موكب فخم • وكان يتقدم الموكب ثلاث عربات في الاولى الشيخ مبارك ، وفي الثانية ابنه الاكبر الشيخ جابر ، وفي الثالثة المعتمد السياسي البريطاني • وخلف العربات كان هناك عدد من شخصيات الكويت ، على خيول مبارك ، وخلفهم حشد من الفضوليين والاولاد •

ونزل مبارك من عربته بتمهل يتبعه ابنه والمعتمد السياسي البريطاني • وترجل المدعوون عن خيولهم ، وصعدوا التلة سيرا على الاقدام حيث كنت وكالفرلي في استقبالهم وقد رد الشيخ تحياتنا لكنه بدا صارما وعابسا • ولم يكن ذلك مشجعا • واقترب رجلان من الشيخ وطلبا منه الموافقة على عصا القياس التي سيستعملانها• وكانت وحدة القياس الرسمية في هذه الايام هي الذراع • والذراع يعادل ١٨ بوصة • وتم وضع عصا القياس باحترام على ذراع الشيخ فوافق عليها • والذراع وحدة قياس قديمة جدا ، وجاء ذكرها في كتاب ديترومونى « ذراع الرجل » (ديتورموني ٣ : ١١) •

وتم قياس قطعة الارض وسط سكوت تام وتحت رذاذ المطر • وقد استغرق القياس اكثر من ربع ساعة • وكنت قريبا من مبارك لدرجة استطعت معها سماع النتيجة • كان طول القطعة ١٩٩ ذراعا وعرضها ١٧٩ ذراعا ، اي ذراع واحد اقل مما نص عليه العقد في كل جانب من المستطيل • وعندئذ حدث امر هام جدا ، اذ استدار نحوى مبارك وهو يبتسم وقال لي « ان المقياس صحيح » •

وتمتمت كلاما فحواه انني كنت احاول ان اقول له ذلك منذ اسابيع • وقال لي « انتظر » ، ثم اشـــار الى الحاضرين بانه سيخطب فيهم •

وكانت فحوى مـــا قاله : يارجال الكويت ، لقد دعوتكم اليوم لمناسبة خاصة جدا • انتم تعلمون انني مرتبط بمعاهدة مع الحكومة البريطانية تمنعني من تأجير او بيع اي جزء من ارضي لاجـــانب بدون موافقتهـــا ، انتم تعلمـــون انـني التزمت بهذا التعهد التزاما تاما ولـــم اعط جزءا من ارضي لاجـــانب الى ان قمت ببيع قطعة الارض هـــذه للارسالية الاميركية ، وبعد موافقة حكومة صاحب الجلالة ، وكما يذكـر العديد منكم انه منذ وقت ليس ببعيد كان الالمان تواقين الـــى الحصول على قطعة كبيرة غرب الكويت من اجل تدعيم خططهم الطموحة • ولم يحصلوا على بوصة واحدة • وانـــا اســـال نفسي اليوم من هم هؤلاء الناس الذين بعتهم قطعة الارض التي نقف عليها ؟ هل هم سياسيون ؟ كلا• هل هم مؤسسة تجارية؟ كـــلا • لماذا حضروا الى هنا ؟ لقد حضروا لتعليمنا ، والله يعلم اننا بحاجة الى تعليم • لقد حضروا لكي يبنوا مستشفى ويعتنوا بمرضانا لقد حضروا لاداء خدمة لنـــا • والان يريد الطبيب ان اعطيه شيئا • وانا لا اعلم ما الذي يريده ، لكنني ساعطيه اياه مهما كان » •

والتفت نحوي وســالني : مـــا الذي تريده يـــا دكتور ؟ «واجبته» ، يا صاحب السمو اريدك أن تعطيني كل هذه التلة» •

وقال « حسنا ، سيحضر رجالي الى هنا غدا صباحـــا وعليك ان تخبرهم بالحدود التي تريدها » •

ولن انسي اشـــراقة وجه كالفـــرلي وهو يقول لي : « يا ماليري ، لقد اعطانا اياها • »

وحضر رجال الشيخ وقاموا برسم الحدود حسب تعليماتي ٠

وبعد ايام بدأت وكالفرلي ببناء منزل الطبيب الذي قدر لي ولزوجتي ان نسكنه سبعا وعشرين سنة ٠ وكان ذلك انتصارا عظيما لنا ، وتغيرت مواقف شخصيات المدينة منا ، فقد سارعوا الى تبني موقف حاكمهم ٠

واصبحت انا ومبارك صديقين حميمين ، وقام باعفائنا من كل الرسوم الجمركية ، كبادرة من عدة مبادرات ايجابية تجاهنا ٠ وقد جرى اختبار الاعفاء بعد اعطائنا له ببضعة اسابيع ٠ فقد وصلتنا شحنة كبيرة من اثاث ومعدات المستشفى ـ هدية من فرانك ر ٠ تشامبرز من نيويورك وهو الذي مول بناء المستشفى ايضا ٠ وبعد وصول الشحنة وصلني بيان جمركي من مدير الجمارك يطالب فيه برسوم جمركية وايجار رصيف ٠ وقد اخذت البيان الى مبارك وذكرته بوعده ، فأرسل لمدير الجمارك الذي وصل خلال دقائق ٠ وكل ما قاله له كان «يقول الدكتور انك ارسلت له بيانا بالرسوم الجمركية ٠ لا تفعل ذلك مرة ثانية اطلاقا ٠ يمكنك الانصراف » ٠

وكانت تلك اخر مرة أتلقى فيها بيانا بالرسوم الجمركية ٠ وهذا امتياز ثمين حقا ، اذ وفر على الارسالية مئات الدولارات خلال الخمسة والثلاثين عاما الماضية ٠

وقد قضيت وكالفرلي صيف عام ١٩١٤ ونحن نبني منزل الطبيب ونكمل بناء المستشفى ٠ وكانت لي خبرة محدودة في البناء اكتسبتها في البحرين ، اما كالفرلي فكان جديدا على الصنعة رغم انه تعلم الكثير من مراقبة المهندسين اثناء عملهما في بناء المستشفى وبشكل خاص ، كيفية مزج اسمنت « بورتلند » كما انه قرأ كثيرا حول القواعد والاعمدة وحول

مشكلات البناء بشكل عام ٠

قبل ان اكمل هذه القصة الشيقة ، اود ان أشير الى ان المهندسين الشابين اللذين شيدا المستشفى لم يبقيا في البصرة بل عادا الى اميركا خائبي الرجاء بسبب قلة الطلبات التجارية ٠ وكانت مدينة البصرة مدينة تركية متخلفة في طريقها للتهاوي ٠ ولو ادرك المهندسان ان بريطانيا ستحتل البصرة في الحرب العالمية الاولى ومكثا فيها لامكنهما اقامة مشروع تجاري ممتاز بسهولة ، لكنهما غادراها قبل الاوان بسنة ٠

وتخللت عمليات البناء اشكالات كثيرة ٠ اولا ، كان البناؤون والعمال الذين استخدمناهم من العرب، وكانت لديهم افكارهم الخاصة حول عملية البناء ، ولم يكونوا بسبب نزعتهم الفردية قادرين على قبول اية أوامر او تحمل ادنى توبيخ ٠ وكانوا جاهلين تماما لمعنى المستقيم والعمودي والافقي وغيرها ٠ ولا يعيرون اهتمامهم للدقة في التنفيذ ٠ ونادرا ما كان المتجول في المدينة يرى اي باب او نافذة مستطيلة بشكل صحيح او مثبتة في الحائط بحسب الابعاد الصحيحة ٠ وبعبارة اخرى ، كان العمل الذي قدمه لنا هؤلاء الرجال هو النوع الذي يتقبله كل سكان الكويت ٠

وكان اسمنت « بورتلند » مادة جديدة بالنسبة لهم ولم يتمكن معظمهم من تعلم طريقة استعماله باتقان ٠ ويمكن اليوم رؤية نتاج عملهم غير المتقن واللامبالي ٠ ولو عرف هؤلاء البناؤون بكميات اسمنت بورتلند الهائلة التي ستستخدمها الكويت عام ١٩٥٠ لربما بذلوا مجهودا في تعلم كيفية استعماله ٠

وهكذا فان الخلافات بيننا وبين البنائين كانت كثيرة ٠

وكان استبدال البنائين لا يفيد لان البنائين الجدد كانوا من نفس النوعية · ومما زاد الطين بلة كوننا مسيحيين · فقد رفض أي كويتي أن يعمل عندنا · وما زلت اذكر صباح أحد الايام حيث وجدت في الورشة قطعة فولاذ مكتوب عليها بالطبشور : « سوف يحترق الانجليز كلهم · ان شاء الله ، في نار جهنم »· وكان هذا الترحيب مكتوبا بالعربية طبعا · وكان عامة الناس لا يميزون ، في ذلك الوقت ، بين الانجليز والاميركيين ·

وكانت المواد المستعملة في البناء من الفولاذ والحديد الممدد واسمنت « بورتلند » ، باستثناء الابواب والنوافذ التي كانت من خشب « التيك » المستورد من بومباى · وكان الجزء العلوي من النوافذ من الزجاج المصقول · ولا اذكر عدد الواح الزجاج المثبتة في ابواب ونوافذ المستشفى ، ولكنني اذكر ان المستشفى ظل يعرف لسنوات باسم «البيت الزجاجي»·

قمت وكالفرلي بتصميم منزل الطبيب ، واتبعنا نفس اساليب البناء المحلية في تشييده ، باستثناء استعمال دعامات فولاذية ـ بدلا من خشبية ـ لسقف الشرفة ·

وقد اعطانا المعتمد السياسي البريطاني الكابتن شكسبير ، والذي كان مهندسا هاويا ممتازا ، اقتراحات قيمة عند وضع خطط البناء · وفي هذه المرحلة غادر شكسبير الكويت ، وخلفه شخص اعلى رتبة منه بكثير وهو الكولونيل و·ج· غراي · وكان الكولونيل غراي حاضرا اثناء قياس قطعة ارضنا ·

وكانت المواد المحلية المستعملة في بناء المنزل مؤلفة من الحجارة المأخوذة من خليج الكويت اثناء الجزر ، والطين او الصلصال ، وجص باريس الذي كان المادة

المستعملة دائما في طلي الجدران من الخارج والداخل · وكان جص باريس ممتازا للدهان الداخلي ، ولكنه كان يتلاشى بسرعة ، وكان المطر يزيله بسهولة · واليوم يزداد استعمال اسمنت بورتلند في الدهان الخارجي ، لانه كما يقول العرب « لا يذوب » ·

وقد توفقنا في استخدام نجارين ايرانيين ماهرين من البحرين قاما بصنع كل الابواب والنوافذ من خشب « المتيك » الذي استوردناه من كراتشي ·

يتضح مما ذكرنا ان مسالة البناء كانت بحاجة الى اشراف دائم ، وبما انني كنت اسكن وكالفرلي على بعد ميل من المبنى ، فاننا كنا نمشي مسافات طويلة لتأمين الاشراف المستمر · وكانت لدينا واجبات اخرى كالتطبيب ، والتعليم ، والتبشير لا تترك لنا وقت فراغ · وهكذا اقتسمت وكالفرلي اوقات الاشراف وكان ذلك يعني المشي أميالا – لان وسائل النقل لم تكن متوفرة – باستثناء الحمير التي لم نعتمد عليها ·

وقد نجحنا في وقت لاحق في استخدام شاب عربي مسيحي من شمال العراق للاشراف على العمل ، ولكن العمال رفضوا اوامره لانه مسيحي · وذات يوم قمت وكالفرلي بمراقبته وهو يبذل جهده لتوجيه طاقات العمال ، وقال لي كالفرلي بطريقته البطيئة والمتعمدة « اتساءل اذا كان ذلك الشاب يدرك عدم جدوى محاولته» ·

ووصلت الى موقع العمل ذات صباح لاجد الشاب وسط زمرة هائجة · ولم اتمكن من رؤيته ، بل رايت اعلى شمسيته التي كانت تلوح بضعف فوق رؤوس العمال ·

واندفعت وسط الزمرة حتى وصلت للشاب وسألته : «ماذا حدث ؟ «واجابني : لقد دعوني بالاجنبي فضربت احدهم بشمسيتي فهجموا علي» · وقد حذرته من تكرار تصرفه اذا كان يريد البقاء سالما ·

وفي الرابع من اب (اغسطس) ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الاولى · وغادرت السيدة كالفرلي وطفلها الكويت الى اميركا في ٧ اغسطس · وقد لحق كالفرلي في اول نوفمبر بزوجته وبقيت وحدي في الكويت · وكنت انا وزوجتي والكولونيل غراى نشكل الجالية المتكلمة بالانجليزية في الكويت ، بالاضافة الى طبيب الحجر الصحي ووكيل الشحن السكوتلندي ·

وكانت خيبة أملي بسير عملية البناء تزداد يوما بعد يوم · فالعمل كان يتم بطريقة لا مبالية وغير دقيقة وبدون حماس الخ ··· ـ حين جاءني ذات صباح رجل ايراني طويل يرتدي تنورة ذات ثنيات ، وقبعة من اللباد ، وقال لي انه معلم بناء · وكان يصحبه شاب بعين واحدة عرفت انه الغلام الذي يتلقى التدريب على يديه · ووقفت معهما نراقب العمال العرب فانتقدهم الايراني بلهجة الواثق من النفس · وقد رجاني قائلا «دعني اريك ما يمكن لي ولمساعدي وبضعة رجال ان نفعل» · وفتح كيسا من الخيش واخرج منه عدة متكاملة لم ار مثلها منذ زمن بعيد،كالشاقول (ميزان البنائين) والكوس (زاوية النجار) والملج (اداة يطين بها) ، والشاكوش والقدوم الخ ··· فطلبت منه ان يعمل في بناء حائط ، وادركت انه ومساعده رجلان لديهما معدات ويعرفان كيف يستعملانها وعقدت اتفاقا فوريا معهما ، ثم طردت كل عمالي العرب ، وطلبت من الرجل جلب عمال ايرانيين مكانهم · وسار العمل

بعد ذلك بسهولة ، وسرعان ما انتهــى بناء المنزل بشكل دقيق وجيد حقق امنيتي ٠

وعندما انتقلت وزوجتي الى منزلنا الجديد «فوق التلة» كان مكشوفا لا يحيط به اى سور ٠ فالارسالية ، لســـبب غريب ، لم تخصص اية ميزانية لبناء سور حول المنزل ٠ وقد شعرنا بحرج ودهشة كبيرة عندما استيقظنا صبيحة اول ليلة قضيناها في المنزل لنجد وجوه البدو رجالا ونساء تطل علينا من كل نافذة ٠ وقد صعدوا التلة ليتفرجوا على المنزل ومـــا بداخله ٠ وما لبثت ان احطت المنزل باسلاك شائكة ارسلها لي اخي من انجلترا ، وكنا قبل وصول الاسلاك الشائكة عرضة للفضوليين ٠ وبمرور الزمن تمكنت من تسييج جزء من المنزل بسور والجزء الاخر باسلاك شائكة ٠

ومن متاعبنا الاخرى اننا وعدنا الشيخ ببناء ســــور بحري على طول قطعة ارضنا في الجانب المواجه للبحـــر ٠ ولكن الارسالية لم تخصص اى مبلغ لهذا السور ٠ وقد عدت من اجازتي وانا اتوقع ان يكون العمل قد تم ٠ وعندما عرضنا الوضع على المجلس في نيويورك ابدوا دهشتهم لقيامنا بتعهد مكلف من هذا النوع ٠ فأخبرناهم ان هذا الشرط يسري على كل مبيعات الارض الواقعة على البحر وانه لم يجر فرض هذا الشرط على الارسالية وحدها ٠

واثناء تبادل المراسلات مع نيويورك كانت المسألة تزداد الحاحا ٠ فكلما هبت ريح قوية من الشمال مع مد عال جـــدا كانت اسسنا على الشاطىء تتداعى ٠

وكان واضحا انه ما لم يتم اتخاذ اجراء فعال ، فـــان

مياه البحر ستهدم اسس مستشفانا · ولم تكن لدينا اموال في مركز الكويت ، ولكن قسم البصرة الطبي هـسرع الـى مساعدتنا على بناء حائط متواضع لصد الامواج · وقد هدم هذا الحائط عند هبوب اول عاصفة كبيرة ، ولكـن حجارته بقيت مكومة في مكانها وخففت من قوة الامواج نوعا ما · وما لبثنا ان تلقينا اموالا كافية من نيويورك وبنينا السور البحري القائم حاليا ·

–٥–

سنوات الحرب

كانت الكويت عام ١٩١٤ معزولة عن العالم الخارجي تماما · وقد وقعت الحرب بكل بطولتها وبؤسها على رؤوسنا وجلسنا نرقب مقتل «اول مئة الف جندي» فوق أرض فرنسا · وبدأ غزو العراق ، وتحولت كل السفن التي كانت تنقل المسافرين والبريد والبضائع عبر الخليج «الفارسي» الى نقل الجنود · وانقطعت السفن عن زيارة ميناء الكويت ·

ولم تكن هناك اية طريق أو مواصلات سلكية ولاسلكية تربط الكويت بالبصرة · وكان هناك زورق خاص ينقل بريد الكولونيل غراي الحكومي ، وبرقيات رويتر من فاو في اعلى شط العرب · وكان هذا الزورق يأتي بين الحين والاخر ويعيد صلتنا بالعالم · ومع استمرار الحرب تم تركيب لاسلكي ميدان ثم خط تلغرافي مع البصرة ، ولكن العزلة التامة كانت نصيبنا في بداية الحرب ·

وكنت كانجليزي تواقا الى الانضمام للحرب بطريقة ما ولكن كان من الصعوبة بمكان ان اترك الكويت في ذلك الوقت · فقد كنت المبشر الوحيد هناك ، وكانت تعهداتنا

للشيخ مبارك تحتل مكان الصدارة · وقد طلب مني السير برسي كوكس الذي كان المفوض السياسي الاول في العراق والخليج «الفارسي» ان ابقى في الكويت ، مشيرا الى انني سأكون اكثر افادة لبلادي في الكويت مني في اى مكان اخر في العالم · فقد كان هناك مقدار كبير من انتشار الشعور المعادي لبريطانيا في الكويت ، وكان نفوذي وتأثيري سيساعد على تخفيضه وهكذا بقيت في الكويت ·

وفي الواقع ، تحملت عددا من المسؤوليات اثناء الحرب فقد اصبحت مسؤولا عن علاج كافة موظفي الحكومة البريطانية بمن فيهم موظفو المعتمدية والبريد والفرقة الخاصة بالحصار · كما انه تم اقامة معسكر رملي ضم ضابطين بريطانيين ، واربعة رقباء وعرفاء ، وعدة مئات من الحمالين · وكانت هذه مسؤولية كبيرة · كان الرمل ينقل الى العراق حيث تقوم وزارة الحربية باستعماله في مختلف اعمال الاسمنت · وبعد ان اخذت السفن تأتي للكويت في وقت لاحق من الحرب اصبحت ضابط الحجر الصحي ، وبقيت كذلك الى ما بعد نهاية الحرب ·

وكنت طوال سنوات الحرب مشغولا جدا اذ بدأت بالاضافة الى مهامي الحكومية بتطوير مستشفانا الجديد الذي تم بناؤه في اكتوبر عام ١٩١٤ (تم بناء منزلي في نفس الوقت تقريبا) · وكان علي العناية بمدرسة كالفرلي لتمكينها من الاستمرار ، واخيرا كان هناك قداس الاحد بالعربية والذي كنت اقيمه في منزلي في المدينة . والذي اصبح الان منزل بائعنا المتجول ومدير مدرستنا ·

وكان القداس بسيطا وموجها خصيصا لعامة الناس

اذ كان يتضمن عادة مقطعا مـن الانجيل ، وصلاة ، وترنيمة دينية أو اثنتين · وكان موقع المنزل مثاليا ، اذ يقع في وسط المدينة على طريق رئيسي يؤدي من البحر الى السوق · وكان القداس يعقد كل احد بدون انقطاع مدة ثلاثين سنة ، اى الى ان قامت الارسالية باخلاء البيت · وقد تعرف الاف الكويتيين على تعاليم وافعال السيد المسيح من خلال ذلك القداس ·

وكان المشاغبون يبذلون كل جهدهم احيانا لعرقلة عملنا التبشيري بارسال الاولاد للصراخ امام باب البيت اثنـاء القداس ، او بقذف المستمعين في الباحة بكتل من الوحل مـن خلف السور ·

وفي احدى المناسبات كنت اخطب في مئة وخمسيـن شخصا تقريبا عندما دخل ثلاثة رجال حسنو الهندام وجلسوا بقربي · وبينما كنت اتكلم اخذوا يقاطعون حديثي بالقهقهـة والكلام بصوت مرتفع · وقد طلبت منهم عدة مرات التوقف عن مقاطعتي الا انهم لم يصغوا لي · وازداد ضجيجهم حين بدأت باعطاء عظتي · توقفت عن الكلام وقلت لهم ما لـم تسكتوا ساضطر لاخراجكم من المكان · وقد بدا تهديدي مسليا كثيرا لهم اذ زاد استهزاءهم · وقفزت على زعيمهم وامسكته برقبته ثم القيت به خارج المنزل · وقد فقد حطته وحذاءه نتيجة للعراك ، وعدت لاكمل خطبتي بدون اية مشكلات اخرى ·

وسألت نفسي وانا عائد الى بيتي : هل ما فعلتـه كان صوابا ؟ وقد اكد لي كالفرلي ان تصرفي كان صحيحا لان هناك تقليدا في الاسلام يقضـي بالقـاء المشاغبين خارج المساجد ·

واغلقت مستوصفي في المدينة في بداية نوفمبر عـــام ١٩١٤ وبدأت عملا منتظما في المستشفى • وكان المستشفى بعيدا عن البيوت والاماكن العامة مما جعلنا نفكر باعـــادة فتح المستوصف • ولكننا صمدنــا وبـــدأ الناس تدريجيـا يعتادون القدوم الى المستشفى ، وكان عددهم يزداد باستمرار وكان الرجال والنساء والاطفال يقصدوننا • وقد عملت فـــي البداية مع زوجتي في المستشفى ، وانضمت الينا الدكتورة اليانور كالفرلي بعد عودتها من اجازتها في اميركا •

وكان ادخال اول مريض للمستشفى حدثا في حد ذاته فلم يكن في المستشفي أسرة أو أي أثاث آخر • وكان عـــدد موظفينا صغيرا جدا لان تدريب المساعدين يحتاج الى وقت • وقد حضر احد افراد عائلة كبيرة لمقابلتي بعد ظهر احد الايام وقال ان صديقا له اصيب بالرصاص وجرح في الصحـــراء وهو بحاجة الى مداواة • وقلت له «احضره ، ولكن عليك ان تحضر له سريرا وطعاما وماء وخادمين للعناية به» •

ووافق الرجل فورا ، ووصل الجريح بعد الظهر ولكنهم لم يحضروا معه شيئا مما طلبته • وقمت باجراء الجراحـــة له وانا واثق ان الحاجات ستصل حتما • وحل المساء دون ان يصل شيء ، وقام الرجل الذي رافقه الى المستشفى بمغادرتنا •

وبعد نصف ساعة على غروب الشمس وصل الرجـــل الذي طلب ادخال الجريح اصلا • وقد عنفته على عدم الوفاء بوعده فأخذ يشتمني ودعاني بالكافر واهانني ثم قال لـــي انني اتحمل مسؤولية تدبير الامر كله • وقد غضبت فعلا ، وامسكت بالرجل وهززته حتى اصطكت اسنانه واخبرته انني سأشكوه للشيخ •

وقد فوجيء الرجل بتصرفي كثيرا ، وهرول خارجا ٠ وبعد اقل من نصف ساعة وصل موكب طويل يحمل كـــل الحاجات التي طلبتها ٠ واصبح الرجل صديقا حميما لي فيما بعد وقمت باعطائه دروسا في الانجليزية ٠

وقد اوقعتني حدة طباعي في المشاكل عدة مرات ، ولكنها افادتني احيانا كما في الحادثة المذكورة ٠ وحصلت حادثـة اخرى في ربيع عام ١٩١٥ ٠ فقد استدعاني ذات صباح الرجل الذي اصبح فيما بعد شيخ الكويت ٠ وكان اخوه الاصغـر مريضا ٠ ذهبت الى القصر ووجدت ان المريض مصاب بالتهاب رئوي حاد ، فاعطيت تعليماتي وارسلت له الدواء ٠

وقمت بعد الظهر بزيارة المريض فوجدت ان تعليماتـي لم تتبع اطلاقا وانه لم يعط الدواء ٠ وتضايقت بالطبع ، ثم خرجت وانا اقول انني لن اعود لمعاينته ٠ وعندما وصلت المنزل اخبرت زوجتي بما حدث فقالت انني تسرعت كثيرا ، فاخذت اخلق المبررات لكنها كانت غير مقتنعة ٠

وابصرت مساعد الشيخ احمد يخرج من بوابة المستشفى ويتجه نحو منزلنا ٠ وكان يحمل شيئا فوق ذراعه ٠ وقمت فورا ودعوته لتناول الشاي معنا ٠ دخل ووضع سجـــادة عجمية جميلة على الارض وسلمني رسالة من الشيخ احمد ٠ وكانت الرسالة كالتالي : «عزيزي الدكتور لقد قضيت اليوم في الصحراء اتدرب على اطلاق النار ٠ وعند عودتي للمنزل تكدرت عندما علمت انك تركت منزلنا غاضبا لان تعليماتـك لم تنفذ ٠ وقد غضبت وامرت ايضا بضرب الخدم ٠ فـاذا حضرت لزيارة اخي مرة ثانية تأكد ان كل اوامرك ستطاع ٠ وكتعبير عن تقديري ارسل لك سجادة صغيرة » ٠

وما زالت تلك السجادة احدى اعز ممتلكاتي . وقد عدت للقصر ، ويسرني القول ان الولد تعافى وما زال حيا . ولم يكن لدينا في تلك الايام بنسلين او ادوية سلفات . وكان العديد من مرضى الالتهاب الرئوي يموتون .

وقد ازلت في هذه الاثناء تورما من ذراع رجل اصبح معروفا في العالم العربي وهو الشيخ حافظ وهبة ، وهو الان سفير الملك عبد العزيز بن سعود في البلاط الانجليزي . وكان حافظ في ذلك الوقت معلم مدرسة مكافحا في الكويت.

وفي نوفمبر عام ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا . وقد كلفت تلك الخطوة تركيا الكثير ، اذ فقدت بسببها العراق وفلسطين والحجاز في الجزيرة العربية . كما شهدت هذه السنون أيضا نهاية النفوذ التركي في اليمن. وقد كانت الحرب مكلفة بالنسبة لبريطانيا أيضا . فقد قتل الالاف من البريطانيين قبل ان يتمكن الجنرال السير ستانلي مود من ترسيخ قدميه في بغداد . وما زالت المقابر التذكارية ومقابر الحرب في العراق اوضح شاهد على ذلك .

وقد لعب مستشفى لانسينغ التذكاري في البصرة دورا كبيرا ، منذ بداية القتال في العراق ، في العناية بالجرحى الاتراك . وكان الطبيبان ارثر بنت وزوجته مسؤولين عن المستشفى ، وقاما ببناء مستشفى ميدان فوق مجمع مستشفى الارسالية الاميريكية في البصرة بمساعدة قائد الاركان البريطاني وبالتعاون معه .

وفي عام ١٩١٦ انتشر وباء التيفوس في مستشفانا . وقد أصيب به الدكتور بنت ورئيس المرضين وأعضاء آخرون

من طاقمنا الطبي ، مما ادى الى وقوع عبء على السـيدة بنت ، والتي ما لبثت ان اصيبت بالتيفوس وتوفيت فـي ٢٩ مارس ١٩١٦ ٠ وكان زوجها اثناء مرضها وعند موتها ما يزال غائبا عن الوعي ٠ فتلقى صدمة هذا النبأ الدكتور فان اس ٠ ولقد كان موت السيدة بنت ضربة قاسية للجالية كلها ادت الى اغلاق المركز الطبي للارسالية في البصرة ٠ وبالرغم من ان ارثر بنت تجاوز الصدمة الا انه انسحب من العمل الميداني وعاد ليستقر في اميركا ٠

وقد نقل مستشفى لانسينغ التذكارى الى العمارة فـي وقت لاحق ٠ وقد رأت الارسالية ، بعد بناء مستشفى مـود التذكاري الكبير في البصرة أن العمارة أحوج الى خدماتنـا الطبية من البصرة ٠

وكنت في هذه الاثناء اقيم فـي الكويت طبعا ، وقـد استغربت ان يبرق لي من بومباي الدكتور وليام تشامبرلين ، سكرتير شؤون الارسالية الخـارجية في نيويورك بتاريـخ ٢ نيسان (ابريل) ١٩١٦ يخبرني بانه سيصل الـى البصرة قريبا وان علي ان اتخذ الترتيبات اللازمة لتمكينه من زيارة البحرين والكويت ٠ كان ذلك خلال معرفتي النبأ الفاجـع بموت السيدة بنت فوقعت في حيرة من امري ولم اعـرف ماذا افعل ٠ فلم تكن هناك سفن تزور الكويت ٠ وقد خطـر لي أن أطلب مـن الشيخ اعارتي أحد يختيه لكي اذهب الى البصرة واحضر الدكتور تشامبرلين ٠ وكان الشيخ مبـارك قد توفي منذ بضعة شهور (٢) ٠ وقد تولى الحكم مكانه ابنه الكبير الشيخ جابر ٠ ولم يمد لي جابر يد المساعدة ، وبدا نبأ موت السيدة بنت مسليا بالنسبة له اذ قهقه مليا لفكرة موت طبيب ٠

وبعــــد ان خذلني الشيخ توجهت الى صديقي المعتمد السياسي البريطاني الكولونيل غراى وطلبت منه أن يضغط قليلا على الشيخ لاعارتي يخته وفعل · فوجدت الزورق تحت تصرفي · ووصلت البصرة في الوقت المنــــاسب لاستقبال الدكتور تشامبرلين على ظهر السفينة ونقلت تشامبرلين الي يخت الشيخ ، واخبرني القبطان اثنـــاء تناولنا الفطور ان ليس لديه فحم يكفيه للوصول الى الكويت وانه لم يجد فحما في البصرة · وقد انزعجت لهذه الاخبار ونزلت الى الشاطىء لارى ما يمكن عمله ·

اخذت الدكتور تشامبرلين الى مقر الارسالية ، وذهبت لاقابل السياسيين · وكان المسـؤول السياســـي الاول في «الخليج الفارسي» والبصرة هو السير برسي كوكس · وكان اعلى رتبة حتى من قادة القوات المقاتلة كافة · وكان الوضع في ذلك الوقت ، ابريل ١٩١٦ ، يقلق المسؤولين البريطانيين كثيرا · فالحرب في العراق لم تسر سيرا حسنا والجنرال تاوسند كان محاصرا مع قوة كبيرة في كوت العمارة وقــد فشلت كل الجهود لامداد قواته الجائعة ·

وهكذا كنت مضطربا حين ذهبت للقيادة السياســية ، ولكنني اطمانيت فورا نتيجة للترحيب الذي قابلني به الكابتن ارنولد ولسون ، الساعد الايمن للسير برسي كوكس · وكانت تلك اول مرة اقابل فيها ولسون ، وقد اعجبت فورا بحيويته وطاقته وفهمه للامور · وقد نشأت بيننا صداقة دامت حتــى موت ولسون في أوائل الحرب العالمية الثانية ·

كان ولسون من افضل الادمغة في العراق ، وقد نال عدة

اوسمة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى · وقد تحدث معي بلطف وسألني ما اذا كان بامكانه تقديم اية خدمة لي · فأخبرته بمشكلة الفحم ، فرفع السماعة وامر شخصا بتزويد اليخت بعشرين طنا من الفحم · وكنت متأكدا ان اوامره ستتنفذ بحذافيرها ·

ثم سالني ولسون عن سبب زيارتي للبصرة فأخبرته ، وعبرت له عن رغبة دكتور تشامبرلين بزيارة البحرين والكويت وتحدثنا حول امور عامة ، وادهشتني مقدرة هذا الرجل المشغول تماما على اشعار زائريه بأن لديه وقتا كافيا لمقابلتهم· واخيرا قال لي ان السير برسي كوكس يود رؤيتك ولكنه مشغول حاليا ، فلماذا لا تبقى للغداء ويكون لدينا وقت كاف بعد ذلك ·

وتناولت الغداء مع السير برسي كوكس والكابتن ولسون واخرين ، واجلسني السير برسي كوسى عن يمينه زيادة في تكريمي · ثم اخذني الى مكتبه وراح يحدثني عن المشكلات العسكرية التي تواجهه · وتناول عدة خرائط عن مكتبه واراني المصاعب التي تواجه الجيش في كوت العمارة وكيف يحاول تذليلها · وكان السير برسي كوكس مسؤولا عن مجرى الامور في العراق طوال تلك السنين الصعبة واظهر عبقريا في كافة الظروف · كان طويل القامة ونحيفا ووجهه يشبه وجه شيخ روماني · وكان انفه الكبير علامة بارزة في وجهه ، وكان يوحي لي بانه رجل لا يسهل خداعه ولا تفوته اية حادثة ·

وما لبث برسي ان سالني عن سبب حضوري للبصرة

فأخبرته القصة ، واضفت ان بامكاني اخذ الزائر للكويت ولكن لا استطيع ترتيب زيارته للبحرين · فنظر الي السير برسي لحظة ثم قال : «الا تعتقد ان بامكان البحرية المساعدة في هذا الامر» ·

وتمتمت موافقا بينما تناول قلما وكتب بعض السطور على ورقة وقرأها : «الى السيد دوغلاس سانت أوبين ، عندنا في البصرة الدكتور وليام تشامبرلين ، سكرتير الشؤون الخارجية في مجلس الارسالية العربية في نيويورك ، يرغب في زيارة الكويت والبحرين ونود مساعدته · ويرافقه الدكتور ماليرى من الكويت · فهل بامكانك مساعدتنا؟ » ·

وسألني اذا كان النص جيدا فاجبت بالايجاب · وضغط على جرس فحضر رجل وناوله الرسالة طالبا ابراقها فورا · والتفت الي قائلاً : «اذهب وروح عن نفسك ساعتين ثم عد لاخذ جواب الرسالة» ·

وبعد عودتي بقليل وصل الجواب التالي : «اذا سافر الدكتور تشامبرلين والدكتور ماليرى على سفينة البريد التي تغادر البصرة الليلة الى بوشهر ، فان الباخرة كليو ستقابلهما صباح غد في بوشهر وتنقلهما الى الكويت والبحرين» ·

وقد سارت الامور بشكل حسن يصعب تصديقه ، وساعدتنا البحرية بأكثر مما تعهدت · فقد غادرت والدكتور شامبرلين البصرة تلك الليلة وقبل ان ترسو سفينتنا في بوشهر قابلنا زورق من الباخرة كليو ، ونقلنا اليها · وتناولنا الفطور مع قائدها ويدعى لويس الذي اخبرنا ان عليه زيارة مينائين

او ثلاثة موانىء قبل الوصول الى البحرين · وحال وصولنا للبحرين سيبقى فترة تمكن الدكتور تشامبرلين من القيـــام بجولته ، ثم ينقلنا الى الكويت حيث يبقى فترة مماثلة · وكانت لديه اوامر باعادة الدكتور تشامبرلين من الكويت الى البصرة وهكذا حللت والدكتور تشامبرلين ضيوفا على البحريـــة البريطانية لمدة عشرة ايام وتمكن تشامبرلين من انجاز جولته·

وكانت تلك الرحلة لا تنسى بالنسبة للدكتور تشامبرلين خاصة وان الكابتن لويس سهر على راحتنا · فقـــد اعطى غرفته للدكتور تشامبرلين ، بينما نمت واياه في حجرة الطعام وكان الكابتن لويس مشغولا باستمرار فـــي تلقي وارسال البرقيات بحيث لا ينام الا قليلا ·

ولم يفت الدكتور تشامبرلين شيء من الروتين اليومي في السفينة · وقد اعجب بشكل خاص «بالصلاة العامة» التي كان يقيمها الكابتن لويس كل صباح على ظهر السفينة · ولـــم يكن تشامبرلين يعلم ان هذه الصلاة كانت واجبا يوميا في كل سفن الاسطول البريطاني · وكان تشامبرلين مدركا للتكريـــم الذي احاطته به الحكومة البريطانية والبحرية الملكية ، وتأثر كثيرا بالخدمة التي اداها له السير برسي كوكس والبحرية في وقت حرج عندما كان في امس الحاجة لها · وقد ارسل الكابتن لويس مجموعة قيمة من الكتب كتعبير عن شكره على الضيافة التي لقيها على متن الباخرة **كليو** ·

-٦-

ابن سعود والاخوان

قابلت عبد العزيز بن سعود المعظم لاول مرة في ربيع عـــام ١٩١٤ · وكنت حسب ما أعلم ، اول مبشر قابله حتى ذلك الحين · وكنت حتما الاول بين زملائي في التعرف على الرجل العظيم · وسبق ان ذكرت ان ابن سعود مدين بكـــل شيء لمبارك الذي رعاه منذ عام ١٨٨٥ حتى عام ١٩٠١ ـ اى خمسة عشر عاما تقريبا · فقد استولت قبائل شمر من الشمال عام ١٨٨٥ على الرياض ، عاصمة العائلة السعودية ، وهرب ابن سعود مع والده عبد الرحمن وعدد من الاتباع المخلصين الى الكويت · وقام مبارك عام ١٩٠١ بتجهيز واعداد ابـن سعود لشن حملة مضادة مكنته من استعادة عاصمته · فتمت استعادة الرياض بالطريقة العربية التقليدية ـ شن غـــارة جريئة محكمة التخطيط ودقيقة التنفيذ · ومنذ ذلك الحين لم يتراجع ابن سعود خطوة الى الخلف · فقد استولى عـــام ١٩١٢ على محافظة الاحساء من الاتراك واصبح في السنـة نفسها قويا لدرجة لفت معها أنظار حكومة صاحب الجلالة ·

وتم في ربيع عام ١٩١٤ عقد مؤتمر في الكويت ما بين مبارك ، وحكومة صاحب الجلالة وممثلين عن الحكومة التركية

وكان يختفي خلف الاجتماع وجه المانيا المقنع · وقد ارادت تركيا اقامة قنصلية لها في الكويت ، وكان سيتم بحث موضوع سكة حديد بغداد المعقد · ولم يكن مبارك او ابن سعود يكنان اية محبة للاتراك · قدم ابن سعود من الاحساء على رأس قوة متوسطة الحجم وعسكر في الصحراء على بعد عشرين ميلا غربي الكويت · (ولم يدخل الكويت ربما خوفا من الغدر التركي) · وقد اصيب العديد من رجال ابن سعود بالحمى فبعث الى مبارك يطلب منه ارسالي لمعالجتهم ·

فارسلني مبارك في احدى افضل عرباته وجرى تغيير خيولها في منتصف الطريق · كان الطقس باردا ولكن الشمس كانت مشرقة ، ولن انسى الرعشة التي سرت في جسدي وانا ادخل معسكر ابن سعود · وكان المعسكر يتألف من صفين من الخيم البيضاء الكبيرة الاوروبية الصنع · وفي نهاية الصفين كانت خيمة ابن سعود تقف بشكل افقي يصل ما بين الصفين · وكان لها سرادق كبير ، وقف ابن سعود عند بابه ينتظرني كي يرحب بي ·

ونزلت من العربة ودخلنا خيمته معا · ولم يكن فيها احد ، وكانت مفروشة بأثاث عربي فخم · كانت ارضها مغطاة بالسجاد ، وكانت تتوزع على السجاد بقرب حائط الخيمة وبشكل متعامد مع الحائط سروج الجمال المغطاة بجلد الخرفان الابيض الجميل · وهذه السروج تريح المتكىء عليها كثيرا اثناء جلوسه على الارض · وكان عدد كبير من البنادق اللامعة والممتازة معلقا على جدران الخيمة · وكان كل ما في الخيمة يتميز بالترتيب والاناقة · وكانت الخيمة توحي بالامان والثقة والقوة ، تماما مثل ما أوحى لي صاحبها وهو يصافحني ·

وكان ابن سعود شخصية بارزة حقا · كان طويل القامة ـ يزيد طوله على ستة اقدام ـ وكان يرتدي ثوبا ابيض طويلا وفوقه عباءة بنية مزركشة بخيوط ذهبية · وكان يضع على رأسه حطة ذات عقال مزودج · وكان حافي القدمين اذ ترك حذاءه عند الباب · وكان يبدو في صحة جيدة وقدرت عمره بخمس وثلاثين سنة · وكانت كل ملامحه ـ وجهه وجسده ـ تعبر عن الذكاء والنشاط والتصميم والقوة · وكان وجهه جميلا ينسجم مع شهرته بالورع والتقوى · ولم يكن وجهه وجه انسان متهتك ، بل وجه رجل عرف كيف يهذب نفسه وعرف معنى الصوم والصلاة · واخيرا ، كان واضحا انه ارستقراطي ·

ومن المرجح ان كل الاوروبيين والاميركيين الذين تعرضوا لتاثير هذا العربي البارز سيصفونه بنفس الصفات ، كما وان تاريخه خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية يدل على صحة انطباعاتي الاولى عنه ·

ولم نطل الحديث · فقد شربت فنجان قهوة ، واستأذنت بالانصراف لمعاينة المرضى وقد تمكنت من رؤية المعسكر كله · فبالاضافة للخيم البيضاء ، كانت هناك خيام عربية ـ وخيام سوداء مصنوعة من الصوف او من شعر الماعز او من كليهما وكان معظم المرضى مصابين بالملاريا التي حملوها من الاحساء وقد عالجتهم باقراص «الكونين»·

وكان محاربو ابن سعود ينتمون للاخوة المشهورين المعروفين بالعربية باسم « الاخوان » · ويشكل هؤلاء الرجال المعروفون ايضا «بالوهابيين» اكثر فرق الاسلام تزمتا وتمسكا

بنصوص الدين · وتستمد هذه الفرقة اسمها من رجل رأى في منتصف القرن الثامن عشر ان الاسلام قد تراخى ، وان المسلمين قد ابتعدوا عن اصول دينهم · وكان الرجل يدعى محمد بن عبد الوهاب · وقد دعا للحياة البسيطة ، والى نبذ الرفاهية ، والامتناع عن التدخين والمشروبات الروحية وعن التزين بالمجوهرات والحلي · كما دعا الى مراعاة اوقات الصلاة وسائر الفروض الدينية مراعاة تامة ·

وهناك حقيقة هامة يجب تسجيلها وهي ان العربي لم يقاتل بضراوة عبر تاريخه ، الا عندما كان عامل الدين يدفعه للقتال · وكان تعصبهم الديني السبب في تمكنهم «خلال تسع سنوات من وفاة النبي من تدمير الامبراطورية الفارسية التي كان عمرها الفا ومئتي عام ، ومن اخضاع الامبراطورية الرومانية البيزنطية التي لا تقل قوة عن الامبراطورية الفارسية ومن سلبها اغنى مقاطعاتها» · هذا القول ماخوذ عن غلوب باشا الذي لخص منجزات العرب خلال مئة عام في هذه السطور · وظل العرب مندفعين الى ان اوقفهم تشارلز مارتل دى تور عام ٧٣٢ ميلادية · وظلت الجيوش العربية ، تحت الراية المحلاة بالعبارة الشهيرة «لا اله الا الله» «محمد رسول الله» ، منصورة لا يمكن مقاومتها مدة اجيال ثلاثة ·

ومن المؤكد ان محمد بن عبد الوهاب قد استغرق يفكر في هذا الماضي طويلا · وقد لقيت دعوته استجابة سريعة ، واصبح لديه جيش قوي · واستولى الوهابيون عام ١٨٠٦ على مدينة مكة ، وبدا انهم سيستولون خلال وقت قصير على كل المدن الرئيسية في الجزيرة العربية · ولكن الاتراك ـ الذين اتكلوا على القائد اللامع ابراهيم باشا بن محمد علي باشا

الكبير حاكم مصر (الالباني) ـ تمكنـــوا من قهرهم وتدمير عاصمتهم عام ١٨١٨ ٠

غير ان الحركة الوهابية لم تمت بل خمدت لبعض الوقت٠ وكانت تهب بين الحين والآخر لتاكيد وجودها ٠ وحدثت اخر انتفاضة لها بعد ان ارتفع نجم ابن سعود ٠ وهنا جاء دور ابن سعود ليستغرق في التفكير ٠ فقد وجد المادة الصالحة لصنع امضى سلاح ٠ وكان قد استعاد عاصمته من قبائل الشمال ، ولكن زعامة الرياض فقط ما كانت لترضي طموحه لان الاتراك يحيطون به من الجانبين ـ من الخليج « الفارسي » ومن البحر الاحمر ٠ وكانت مقاطعة الاحساء قريبة منه وفيها حامية تركية رمزية ٠ أما من ناحية البحر الاحمر ، فان كل حاكم عربي قوي تطلع الى السيطرة على المدينتين المقدستيـــن ، مكة والمدينة المنورة ٠ والى الشمال ، كان اعداؤه التقليديون قبائل الشمر يشكلون خطرا وتحديا دائما لا يمكن ازالتـــه الا بهزيمتهم واخضاعهم ٠

ولكن لا يمكن تحقيق اي من هذه الطموحات بدون جيش قوي ، ومن اين له ان يشكل ويمول جيشـــا وهو فقير ، وفي الوقت الذي لا تدين له قبائل الصحراء بالولاء ؟ وكانت حركة الوهابيين هي الجواب ، وسارع ابن سعود للافادة من وضعها فمنحها تأييده التام ٠ وعادت شعلة الايمان تتاجج ، واصبح الاخوان اكثر حماسا ٠ وكانـــوا يعتقـــدمون انهم المسلمون الحقيقيون وان من ليس منهم فهو كافر ٠ وارسلت الكتب الى القبائل تدعوها للانضمام للحركـــة والا فسيكون مصيرها الذبح ٠ وبدأ الاخوان يقرأون اسمـــاء الناس في المساجد ، وكان يجري اعتقال المتغيبين عن الصلاة ومعاقبتهم ٠ وقد قيل انه جرى قتل بعض الناس رميا بالرصاص لانهم كانوا يدخنون٠

واصبح التدخين امرا معيبا · وانتصر التعصب الاعمى · وولد جيش المجاهدين الجدد الذي امكن بواسطته اقامة المملكة العربية السعودية · وقد تحرك ابن سعود عام ١٩٢٠ ضد مدينة حائل وهزم قبائل شمر هزيمة نهائية ملحقا اياهم بسلالة الرشيد · وما زال افراد عائلة الرشيد البارزين مسجونين في الرياض · وانتصر الاخوان طوال عشرين عاما حيثما قاتلوا وهكذا اثبت جيش الجهاد العربي نفسه مرة اخرى كجيش لا يقهر · وتمكن ابن سعود من تحقيق طموحاته واثبت للعالم قوته الخارقة كقائد ديني وعسكري وكرجل دولة · لقد ساعد الاخوان فمكنوه من صنع مكانته الكبيرة · ويرجع تقهقر حركة الاخوان التدريجي الى اعتقاد قادتها ان بامكانهم القضاء على ملكهم ابن سعود وانتزاع ما حققوه له · ولكن تلك قصة اخرى ·

ويجب التشديد على ان الملك لم يكن رجل دنيا وباحثا عن الثروة استغل سذاجة رجاله لبناء قوته واقامة مملكته · فمن المؤكد انه كان يؤمن بمثل الاخوان الروحية نفس ايمان الخلفاء في الايام الاولى للفتح العربي · وقد تخلى عن الاخوان لانهم حاولوا تجريده من سلطته · فليس هناك اي ملك يتحمل العصيان ·

وبعد ان عاينت كل المرضى في المعسكر ، عدت لتقديم تقرير لابن سعود · وبعد ان بحثنا مختلف الحالات المرضية انتقلنا الى حديث علم ووصلنا الى مسالة حسنات كل من الطب القديم والحديث · وكان واضحا ان ابن سعود قد قرأ كتاب ابن سينا ، واخذ يدافع عن الافكار القديمة بشدة · وقلت له بتادب انه لجأ الى خدماتي انا بدلا من ان يستعين بخدمات الحكماء العرب في الكويت · وقلت اثناء الحديث ان الجانب الروحي لعمل الطبيب اهم من الجانب المادي · فعلى الطبيب

ان يحب مرضاه · ووافق ابن سعود على كلامي ، واضاف ان الطب ياتي في قمة الامور الضرورية للانسانية ·

وعندها قلت له « لماذا لا تدعنـــا نبنـي مستشفى في الرياض ·؟ »

واجاب « يادكتور ، دعني اروي لك قصة · كان الملاك جبريل يقف على ابواب الجنة حين وصل مؤمن وطلب السماح له بالدخول · وسأل جبريل الرجل بضعة أسئلة ثم قال لـه يمكنك الدخول ، لكن عليك اولا ان تضحـــي بخروف للتمثال الذهبي الكبير الذي تراه على احد جانبي البوابة · واجـابه الرجل « استغفر الله · انا لا اعبد الاصنام ولا اضحي لها » · وقال جبريل « حسنا ، اذا كان الخــروف كبيرا ، فما رايك بدجاجة ؟ » واجاب الرجل : « انا لا اضحي للاصنام » وساله جبريل « ولا حتى ذبابة ؟ اذا قدمـــت ذبابـة تكون قد اوفيت القانون حقه وتدخل » وصرخ الرجل : « كلا ، كلا ، كلا · لا اله الا الله محمد رسول الله» · وعندئذ سمــع صوتا بعيدا يقول « ادخله انه مؤمن حقا » · « وبعد وقــت قصير حضر مؤمن آخر وخضع لنفس الامتحان ورفض تضحية خروف او دجاجة ولكن عندما وصل الى الذبابة خانته شجاعته · فقد خاف من أن يمنع من دخول الجنة وضحى بذبابة · وسمع الصوت البعيد مرة اخرى : خذه الى جهنم فهو ليس مؤمنا » ·

وتابع ابن سعود كلامه قائلا : هل ترى ما اعني · فنحن في وسط الجزيرة العربية لسنا من دين واحد فقط ، وانمـا نحن اعضــــاء في نفس الفرقة الدينية · وانا واثق انني لو سمحت لكم بالاقامة في بلدي لاحضـــرتم رسالتكـم وكتبكم وحاولتم نشرها · وسيبلبل ذلك افكار قومـــي وستواجهني المشكلات · كلا · لن اضحي حتى بذبابة لاي دين آخر· وعندما

أحتاج اليكم أستدعيكم ، ولكن لن أسمح لكم بالاقامة الدائمة في بلدي » .

واستأذنت بعد ذلك بقليل وانسحبت الى خيمة اعدت خصيصا لي . وما كدت اجلس حتى سمعت صوت رجل يفرك اصابعه محاولا لفت انتباهي اليه فدعوته للدخول . وبعد حديث بسيط ، سألته عما يريد ودهشت كثيرا حين سألني اذا كان بامكانه تدخين سيجارة في خيمتي . وسمحت له بذلك ، فاخرج علبة السجائر من طيات ثوبه . وما لبثت ان سمعت طرقعة الاصابع نفسها مرة ثانية وثالثة فسمحت لصاحبيها بالدخول. ووجدت نفسي في وضع خطير اذ سمحت لرجال مضيفي بخرق قانونه في خيمتي . وارتعبت خوفا من وصول رائحة الدخان الى خيمة ابن سعود . ولكن كلا من هؤلاء اكتفى بتدخين سيجارة واحدة وانسحبوا ولم تصل الحادثة الى ابن سعود. ولم يكن هؤلاء الرجال ليجرؤون على تلك المخاطرة لولا بعد خيمتي عن خيمة زعيمهم ، ولو لم يكن وقت راحة بعد الظهر حيث ينام الجميع . وبدا انهم كانوا واثقين انني لن اشي بهم . وأخيرا، كانوا في خيمتي وكانت لهم حقوق الضيافة العربية.

وكانت تلك الحادثة دليلا على عدم موافقة كل اعضاء حركة الاخوان على تزمت الحركة وتشددها فيما يتعلق بالمسلك الشخصي .

وبعد اربع سنوات ، عام ١٩١٨ ، كانت هناك تتمة لحديثي مع ابن سعود . فقد عرفت تلك السنة بسنة انتشار وباء الانفلونزا الذي اجتاح العالم وقضى على خمسة وعشرين مليون انسان كما يقال . ولم ينج القصر الملكي في الرياض من الوباء – ومن المثير للعجب كيفية تمكن الانفلونزا من عبور الصحراء العربية المترامية الاطراف . وقد اصيب بالوباء كل

من والدة ابن سعود وولده الاكبر ، العزيز على قلبه ، تركي ·
وقد توفيا عند وصول زميلي بول هاريسون قادما من البحرين
بعد أن استدعاه ابن سعود على عجل ·

مكث بول هاريسون في الرياض ثلاثة اشهر عمل
خلالها بجد وقام بعدة عمليات جراحية · وقد تساءلت كثيرا
فيما اذا كان ابن سعود قد فكر في حديثه معي وبقصة جبريل ·
وقد قام بول هاريسون بعدة زيارات الى الرياض ونجد بعد
ذلك · كما قام كل اطبائنا في البحرين ـ ديم ، ستورم ، ثومس،
واستير بارني ايمس ـ بالعمل في عدة مناطق من ولاية ابن
سعود ووثق ابن سعود ـ الملك حاليا ـ بأستير وأولاها علاج
نسائه طوال سنين · وهي ما تزال تسافر الى الظهران
والرياض وغيرهما لمعالجة النساء عندما يرسل لها الملك
احدى طائراته الخاصة ·

وقد تمكن اخيرا احد رجال الدين المسيحي من زيارة
الداخل برفقة زوجته وابنه واحد اطبائنا · وكان الرجل القس
ج·و· فان بيرسوم من البحرين اول قسيس يدخل الرياض ·
ويبدو لي ان الارسالية العربية ستتمكن في المستقبل
القريب من اقامة مستشفيات في عدة نقاط استراتيجية في
الداخل · ولكن الملك لم يتراجع حتى الآن عن الموقف الذي
اتخذه في ربيع عام ١٩١٤ ، منذ ستة وثلاثين عاما عندما قال
انه سيستدعينا عندما يحتاجنا ولكنه لن يسمح لنا ابدا بالاقامة
الدائمة في دياره ·

وقبل ان نترك موضوع ابن سعود مؤقتا ، اجد من المفيد
تسجيل حادثة جرت عندما كنت مسؤولا عن مستشفانا في
البحرين · فقد عدت من الغداء في احد ايام عام ١٩١٠ او
١٩١١ لاجد بطاقة مزينة بالذهب مكتوب عليها « السيد طالب

باشا متصرف الاحساء ونجد » · وقد استدعيت الخادم الذي افاد بان الزائر الرفيع قد ابلغه بانه سيمر بعد الظهر ·

وحضر الزائر بعد الظهر ، وقلت له اثناء شربنا الشاي لقد عرفت من بطاقتك انك متصرف الاحساء ونجد ـ فهل تزمع الذهاب الى نجد ؟

واجاب ضاحكا : « كلا فاذا ذهبت سيقتلونني · وسيكون مقري في الاحساء ، فتعييني متصرفا على نجد جاء من قبل اسطمبول ، وهو تعيين اسمي فقط » ·

ولست اذكر الآن ما اذا كان السيد طالب موجودا في الاحساء عندما اجتاحها ابن سعود من الرياض وهزم حاميتها التركية بسهولة · واذا لم يكن السيد طالب آخر متصرف للاحساء، فهو حتما الحاكم قبل الاخير · وقد كان السيد طالب، ابن السيد رجب نقيب البصرة ، رجلا قديرا وشخصا بارزا في العراق اثناء المفاوضات السياسية التي تلت الحرب العالمية الاولى · وكان يعرف ضعف القوات التركية في الحسا حق المعرفة ، ولم يكن بالتالي يعتزم المخاطرة بالاحتكاك بسكان نجد المتعصبين والاقوياء ·

وذات مرة ، ربما عام ١٩١٥ ، دخل مستشفانا في الكويت احد الاخوان للمعالجة · وكان قد وقع عن جمله وكسر ساقه · وأصبحنا صديقين ، وبعد أن تماثل للشفاء دعاني لزيارة الصحراء · ولكنني قلت له « انك تكرهني · واذا ذهبت معك الى الصحراء ستقتلني » ·

واجابني : « صحيح انني اكرهك ، ولكن كرهي لك كره ديني فقط · أما كرجل فانا احبك ولن انسى ما فعلته لي » ·

هل كان قادرا على حمايتي ؟ لا ادري · فلم أرافقه ولم اضع محبته موضع اختبار فعلي ·

-٧-

الاخوان على ابواب الكويت

تميز عام ١٩٢٠ بازدياد حدة التوتـــر ما بين الكويت والسعودية العربية · وقد بلغت سطوة جيش الملك ابن سعود ، المؤلف من الاخوان الوهابيين المتعصبين أوجها في هذا العام بعد هزيمة قبائل الشمر في الشمال واحتلال عاصمتهم « حائل » اذ أصبحـــت كل بلاد الشـــمر ، كما هي اليوم ، جزءا من امبراطورية ابن سعود · وأصبح الاخوان في نظر الناس قوة لا تقهـــر ·

ومن المؤكد ان ابن سعود كان يتطلع الى الكويت بشوق نظرا لمينائها العميق · وكان امتلاك هذا الميناء يعطي منفذا هائلا لامبراطوريته الجديدة · وكـــان الشيخ مبارك العظيم ـ الوحيد القادر على التعامل مع ابن‌سعود وتجنب‌الحرب‌معه ـ يرقد في قبره منذ اربع سنوات ·

وقد ازدادت تحرشات الاخوان بالكويت خلال شهر مايو من ذلك العام ، فكانوا يشنون هجمات مستمرة على الاراضي الكويتية فيفقدون بعض الرجال لكنهم يسببون للكويت الكثيـــر من الخسائر في الجمال والخراف والماعز · وقد هزمت القوات الكويتية بقيادة دعيج بن سلمـــان في منتصـــف مايو هزيمة شنيعة على يد الاخوان · واسر دعيج السلمان ، بينما فقـــد

هلال المطيرى وهو اغنى تاجر في الكويت الف جمل ٠ وازداد الشعور بالعداء لابن سعود في الكويت ٠ وقام الشيخ سالم حاكم الكويت الجديد ، في ٢٢ مايو بتدشين بدء العمل في بناء سور جديد للمدينة ٠ وكان هذا ثالث سور للمدينة في تاريخ الكويت ٠ أما السوران السابقان فقد تجاوزتهما المدينة المتسعة باستمرار منذ زمن بعيد ٠ وكان السور الجديد يمتد في شكل نصف دائرى خلف الكويت من البحر الى البحر ٠

وكان بناء هذا السور آية في التنظيم ٠ فقد فرضت الضريبة على سكان المدينة ٠ وتم تعيين مسؤليات محددة لرجال المدينة البارزين ٠ وعين شخص مسؤولا عن الحفر وآخر عن الصلصال وثالث عن المواصلات ٠ وكان الصلصال المادة الرئيسية المستعملة في البناء وبما ان طول السور كان سيبلغ ثلاثة اميال وسمك جداره ستة اقدام وارتفاعه عشرين قدما ، فان كمية الصلصال المطلوبة كانت هائلة ٠ وعين رجل آخر مسؤولا عن توفر الجص والملاط بكميات كافية ورابع مسؤولا عن اطعام آلاف العمال ، وخامس عن حل مشكلة توفير مياه الشرب للعاملين ٠

واستمر العمل الجاد طول الصيف اللاهب ، وتم بناء السور فيسبتمبر اى خلال اربعة شهور، وكان انجازا رائعا وامتد السور اكثر من ثلاثة اميال وعزل المدينة تماما من ناحية البر ٠ وقد جرى مد طرفيه الى داخل البحر، والى مدى أبعد من المياه الضحلة الراكدة لمنع العدو من تسلق السور اثناء الجزر ٠ وكان للسور بوابات ثلاث ، وبوابة رابعة خاصة بالامير قرب قصر دسمان الخاص به ٠ وكانت البوابات اشبه بالحصون المنيعة ، وقد زود السور بأبراج لها فتحات تطلق منها النار كل ثلاثمة ياردة ٠ وكنت هناك على طول السور من

الداخل عارضة خشبية يمكن للمسلحين الوقوف عليها واطلاق النار على العدو من فتحات في الجدار وهكذا كان السور آخر خط للدفاع وآخر انجاز في فن الدفاع كما يفهمه العرب · واصبحت الكويت مدينة مسورة ·

ولم اتمالك نفسي ، وانا اشـــــاهد تحفة سالم ، مـــن استعادة كلمات الشيخ مبارك العظيم عندما سالته لماذا لم يبن سورا حول الكويت واجابني « انا السور » ·

في الجزء الثاني من كتاب دسموئيل البـــاب الحادى عشر الفصل الاول ، نجد الجملة التالية : « عندما يذهـــب الملوك الى المعركة » · وكنت وانا طفل اسخر دائما من ملاحظة المؤرخ القديم التي تشير الى انه لولا ظروف معينة خارجة عـــن ارادة الملوك لذهبوا الى الحرب طوال السنة · وفي الجزيرة العربية ، حيث تكون الصحراء في الصيف كالفرن المشتعل لا يمكن شن الحرب · فالجمال والرجال قادرة علـــى بعض ذلك الحر، ولكن الخيول التي تحتاج الى كميات وفيرة من المياه غير صالحة للحرب في الصيف ·

وكان الصيف يقترب من نهايته · واصبح معدل درجة الحرارة ٩٨ درجة فهرنهايت · وكان اهالي الكويت يقولون طوال اسابيع « حالما تخف الحرارة سيهاجمنا الاخوان » · ولم تكن المدينة قد نسيت كارثة مايو ، وكان الحقد على ابن سعود في اوجه · فقد هزمت الكويت مرة وكـــــانت تخشى المواجهة الثانية·

وكانت تسود المدينة حالة توتر وقلق · وبدأت القوات بالتجمعفياليوم الثامن مناكتوبر ووصلت انباء تقول انقوات ابن سعود بقيادة فيصل الدويش تهدد الجهراء وهي قريـــة

زراعية على بعد ١٨ ميلا غربي الكويت ٠ وكان الشيخ سالم وجيشه في الجهراء لانها موقع اساسي لصد اي هجوم على مدينة الكويت ٠

كان السؤال المقلق الذي تردد على كل شفة هو « ماذا نفعل اذا هزم رجالنا ؟ » ٠ جرى التشدد في التجنيد الاجباري ٠ وتم تفتيش دقيق لكل بيت أدى الى الحاق بضع مئات من الرجال بالجيش ٠ وتم اثناء الليل تدعيم سور الكويت ٠ وكان المدافعون عند السور يشجعون بعضهم بترديد أغنيات الحرب ٠ وكان نومنا في الارسالية أثناء الليل صعبا لاننا كنا نبعد ٣٥٠ ياردة عن الطريق الغربي للسور ٠

وفي العاشر من اكتوبر وقعت المعركة ٠ فبينما كنت اتناول الشاى مع زوجتي على شرفة منزلنا في الصباح الباكر سمعنا صوت الرصاص من الجهراء ٠ وامتلأ الجو بالشائعات المتناقضة ٠ وأصابت الجميع حالة هياج ٠ وهرع الجميع ـ الاغنياء والفقراء، الكبار والصغار الاحرار والعبيد ـ الى البوابات والسور لاخذ اماكنهم ومساندة المدافعين عنه ٠ وأدرك الجميع انه اذا انتصر العدو في الجهراء فسيهاجم الكويت بدون انذار ٠ ولم يكن هناك أي شخص بدون سلاح ، وكان الجميع تقريبا مسلحين ببنادق من الطراز « مازور» « و » مارتيني » وكانت الذخيرة متوفرة بكثرة ٠ وكان بعض الناس مسلحين بالسيوف والمسدسات بالاضافة الى البنادق ٠ ولم اتمكن من تمييز اصدقائي اذ كان الجميع يرتدون اثوابا قصيرة بيضاء ومتمنطقين بالاسلحة ، وعلى رأس كل منهم حطة بيضاء وعقال اسود٠

زارنا عند الظهر المعتمد السياسي البريطاني

الكولونيل ج · سي · مور ، واخبرنا انه سمع بان الشيخ سالم محاصر في قلعة الجهراء وانه معرض للخطر الشديد · وبعد حديث قصير اخذني بسيارته الى بوابة السور الجديد الرئيسية · وكان الشيخ احمد ، ولي عهد الكويت ، هناك واكد لنا الاخير أن كل شيء على ما يرام وانه لا داعي للقلق ·

ولكن المشهد الذي واجهنا كذّب تفاؤله · فقد كان اللاجئون من الجهراء ومن الصحراء يتدفقون على البوابة عائلات بكاملها مع أمتعتها المنزلية وجمالها وحميرها وكلابها · وكانت هناك فتاة بدوية تحاول جاهدة ادخال جمل هائج عبر البوابة · ولم تتمكن من ذلك الا بمساعدة سبعة رجال قاموا بضرب الجمل ودفعه بكل قوتهم داخل البوابة · وتكررت هذه الحادثة مرارا ، فالجمل يكره البوابات ، فكيف بالابواب الصغيرة ·

وكان كل قادم جديد يلقى سيلا من الاسئلة تطرح عليه من عدة رجال يصرخون باعلى صوتهم في آن واحد · ولم أتمكن من فهم الحوار · وكان الشيخ احمد يوجه بعض الاسئلة ، لكن الجميع كانوا يقاطعونه باستمرار بتدخلهم في الحديث ·

وكانت حمير البدو السوداء الصغيرة تعبر البوابات وهي لا تكاد ترى من كثرة الحوائج المحملة عليها · وكانت الحمير تحمل بالاضافة الى الحوائج المنزلية ، الاطفال والمكفوفين والمسنين · وكانت الكلاب كثيرة ومشغولة بمساعدة اصحابها ·

وما لبث ان وصل بعض الفرسان وتبين انهم من خيالة

الشيخ سالم ، وقد تراجعوا لانقاذ ما يمكن انقاذه · وكانت هزيمة وتفرق خيالة الشيخ سالم على يد فيصل الدويش هي الخطوة الاولى في معركة الجهراء· وقد حملت انطباعا رئيسيا نتيجة لما شاهدته وهو ان المدينة في حالة رعب ·

ووصل اوائل الجرحى في الساعة الثانية بعد الظهر ، وكانوا جميعا من الخيالة وبما أنهم سقطوا في بداية المعركة ، فان معلوماتهم لم تكن قيمة · ولكن مع غروب شمس ذلك اليوم اتضح ان الشيخ سالم محاصر مع قوته الرئيسية في قلعة الجهراء · وكانت لديه مؤن كثيرة ولكن الماء كان قليلا ومالحا ، وبدا الوضع ميؤوسا منه ·

وبينما كنت وزوجتي نهم بتناول العشاء بعد غروب الشمس سمعنا صراخا وعويلا من الجانب الشرقي للمدينة · وكان صراخ النساء وبكاء الاولاد يصلنا بوضوح· وأنطلقت الصيحة من كافة الارجاء بان الاخوان قد دخلوا المدينة · وطلبت المعتمد السياسي بالهاتف لان الضجة اتية من الجهة التي يقع فيها منزله ، وسالته عما يجري · وأجابني بأنها حالة رعب فقط · فقد وصل بعض الفارين من المعركة الى احدى البوابات وظن الحرس انهم من الاخوان وتم توضيح الخطأ وخف الرعب · وهكذا مرّ يوم الاحد المليء بالاحداث ·

وقد ارسلت تعزيزات في اليوم التالي ١١ اكتوبر ، مؤلفة من الحمالين الايرانيين ومن المطلوبين للعدالة وشذاذ الافاق من كافة الاوصاف الى الجهراء بطريق البحر على متن احد زوارق الشيخ · وقد انقذت هذة الخطوة الوضع · فالعالم كله يعرف أن هناك مقدارا كبيرا من الحظ في الحرب ، وقد كان التاثير المعنوي لوصول الزورق – رغم صغر حجم

التعزيزات ـ كبيـــرا ٠ وقد صادف وصول التعزيزات مع وصول ستمئة رجل شمرى لا يكنون اى حــب للشيخ سالم لكنهم يحملون الكثير من الكره للاخوان ٠

وكان الاخوان يشنون الهجوم ويندفعون اندفــاعا نحو الموت بشكل جعلهم لا يهتمون بتوفير الحمايـــة لانفسهم ، الامر الذى ادى الى وقوع اصابات جسيمة في صفوفهم ٠ واغتنم الشيخ سالم الفرصة وخرج من القلعة وقام بهجوم مضاد علـــــى الاخوان يسانده فيه الشمر والتعزيزات التي وصلــت من الكويــت بطريق البحــــر ٠ واستطاع هزيمــة الاخوان خــلال وقت قصير وجعلهم يطلبون السلام ٠ وقد تم وضع ترتيب للسلم غادر بموجبه الاخوان المكان وأخـــــذوا جرحاهم معهم ٠ وهكـــذا انتهت معركـــــة الجهراء لصالح الكويتيين بعد ان كانت الهزيمة قاب قوسين او ادنى ٠

وكانت معركة الجهراء احدى المعارك الدامية في تاريخ الجزيرة العربية٠ فقد دخل الاخوان المعركة بـ ٣٥٠٠ محارب قتــــل منهم ٨٤٠ محارب وجرح ٨٠٠ اخرون ، اى نصف القوة المحاربة تقريبا ٠

وانتشرت في الكويت قصة موت جرحاهم بسهولـــة نظرا لعدم وجود اية خبرة او مهارة طبية لديهم ٠ وقـــام الاخوان اثناء محاصرتهم للشيخ سالم في القلعة بنهب قريــة الجهراء ، واستولوا على كمية من المسك ووزعوها على رجالهم الذين قاموا بضمها الى الحاجيات الاخرى التيسلبوها فأشبع الجو برائحتها الذكية والنفاذة وسرى اعتقاد في أوساط اهالي الكويت بان الشذى والعبير يقتل المجروح ٠ وكنــت تشاهد الناس يوميا يتجولون في الشوارع وقد سدوا أنوفهم

بالقطن والحلتيت* حتى لا يستنشقوا اية رائحة ذكية أو عبير فقد استنشق جرحى الاخوان المسك ، وبالتالي ساءت حالة جروحهم وماتوا ٠ وكان ذلك الحادث بالنسبة للرجل العادي في الكويت مسألة سبب ونتيجة واضحة لا تقبل الجدل ٠ وما زال هذا الاعتقاد قائما في الكويت ، ولكن انتشاره اصبح محدودا ٠ فالعلم يلعب دوره في محاربة هذه المعتقدات الغيبية* ٠

وماذا عن الخسائر الكويتية ؟ كان عدد الجيشين متساويا، ولكن الكويتيين كانوا لا يجازفون بانفسهم ، بينما كان الاخوان يندفعون الى العراء بغض النظر عن المخاطر ٠ كان ذلك بطولة لكنه لم يكن حربا ٠ وقد قتل ٦٣ كويتيا في المعركة فقط ، توفي اربعة آخرون في مستشفى الارسالية الامريكية متاثرين بجراحهم كانت نسبة القتلى من الاخوان الى الكويتيين ١٢ : ١ ، اما عدد الكويتيين فكان ١٢٠ جريحا مقابل ٨٠٠ جريح من الاخوان ٠

وكان بين الجرحى الكويتيين الاربعة الذين ماتوا متاثرين بجراحهم رجل مات متسمما بالغاز ، وكانت هذه الحالة الوحيدة للتسمم بالغاز التي شاهدتها في الجزيرة العربية ٠ وقد دارت معركة الجهراء وسط حقول ذات سماد كثيف وفي حقول الحنطة ٠ وقد نتج عن ذلك انتشارعدوى كبيرة ٠ ولو كان لدينا بنسلين أو سلفات في تلك الايام

....

* الحلتيت : صمغ راتينجي يستخرج من جذور بعض النباتات (المترجم) ٠

* ما زالت فكرة عدم الجمع بين الروائح والجروح منتشرة شعبيا (المترجم) ٠

لتمكنا من انقاذ كل جرحانا ٠

وقد وصل معظم الجرحى الى الكويت يوم ١١ اكتوبر ما عدا ذوو الحالات السيئة فقد وصلونا بالبحر يوم ١٢ اكتوبر ٠ وكانت الجراح تتفاوت ، بعضها طفيف وبعضها عميق ٠ وكانت هناك بعض الاصابات بالسيوف والخناجر، ولكن معظم الاصابات كانت نتيجة لطلقات البنادق ٠

واتى الدكتور ت٠ هـ٠ ماكنزي عضو مجلس ادارة الارسالية يوم ١٢ اكتوبر من نيويورك لزيارتنا ٠ وكنت في ذلك الوقت ضابط الحجر الصحي في ميناء الكويت وكان علي ان اتفقد كافة السفن القادمة للميناء ٠ وقد وصلت الى الرصيف الذي ينطلق منه قاربي فلم اجده ، فعرجت على مقهى لاتناول فنجانا من القهوة ٠ وعند دخولي المقهى لاحظت أن وجهاء البلد موجودون هناك ٠ وقد وقف الجميع لتحيتي قائلين « أطال الله عمرك » ، و « ان شاء الله تعيش الف سنة » وهكذا ٠ كنت متعبا ومتضايقا لانني كنت اعمل بلا انقطاع معظم الاربع والعشرين ساعة الماضية ٠ وقد استأت من تصرف الشيخ بعد الحوادث ٠ فهو لم يذهب الى المستشفى ، ولم يرسل رسالة شكر للجرحى او للذين قدموا له المساعدة في المعركة ٠

وكان هناك الكثير من حديث الورع والتقوى دائرا في المقهى ، وعندما قال لي الشخص البارز ان الله سيكافئنا ثرت وقلت له ٠ « هذا كله كلام جميل ولكن الكلام ارخص بضاعة في الدنيا ٠ انكم تلقون بعبء العمل كله علي ولكن لم يخطر في بال احدكم ان يمد يد المساعدة ماليا أو بأي طريقة اخرى ، ففي بلادي ، يقوم الحكام أولا بزيارة الجرحى ويبذلون ما في وسعهم لانقاذ حياة هؤلاء الذين خاطروا بكل شيء في سبيل وطنهم ويسهرون على تأمين افضل

عناية ورعاية لهم · أما هنا فيقوم عبيد الشيخ بالقاء الجرحى على شرفة المستشفى ويرحلون · وهذا كل ما تفعلونه· ولا يتعب اي منكم نفسه بالتفكير بقدرة مساعدي القليلي العدد على تحمل هذا العبء الاضافي » ·

ولاحظت فجأة ان بين الرجال البارزين الذين حدثتهم احد الشيوخ الكبار من العائلة الحاكمة فدب الرعب في نفسي ، وقد وقف هذا الشيخ ببطء رافعا رأسه ولف نفسه بعباءته ثم غادر المكان دون ان يقول كلمة او ينظر الي نظرة واحدة · وقد تبعه بقية الوجهاء · وتركوا جميعهم المقهى بنفس الطريقة · وبقيت وحدي مع صاحب المقهى · واخيرا غادرت المقهى ·

وصعدت الى قاربي بتثاقل ، فقد ادركت انني ارتكبت خطأ مميتا وان طبعي الحاد أوقعني مرة اخرى في مأزق · وتساءلت عما سيحدث ·

وجدت الدكتور ماكنزي على ظهر السفينة واصطحبته معي الى الشاطىء · واخبرته عما حدث في الايام الاخيرة، ثم رويت له مأزقي المالي · واضفت انه سيرى مستشفانا الصغير وسيوافق على ضرورة وجوده واهمية الخدمات التي يقدمها ·

وبينما كنت اتناول العشاء تلك الليلة مع زوجتي والدكتور ماكنزي حضر رجلان وطلبا مقابلتي · خرجت الى الباب وادركت فورا ان الرجلين من بين الذين كانوا في المقهى في الصباح·وكان الرجلان لطيفين وقالا انهما حاولا مقابلتي عدة مرات بعد الظهر · وادخلتهما الى حجرة

مكتبي ، حيث بدأ احدهما الحديث بقوله « كما تعلم يــــا دكتور كنا بين الحاضرين في المقهـــى هذا الصباح عندما كلمتنا حول عــــــدم قيامنا بأي عمل · وكــــل كلمة قلتها صحيحة · وقد قمنا بزيارة معظم وجهاء المدينة · ونحـــن نؤكد لك ان المدينة تدعمك وانهــــا على استعداد لمساعدتك ماليا وبطرق اخرى · وقد انتدبنا لابلاغك ذلك » ·

وعندما اتم كلامـــــه وضع على مكتبي لائحة طويلة بأسماء وجهـــــاء ، وكان مدونا مقابل كل توقيع مبلـــغ من المال دفعه صاحـــــب التوقيع او تعهد بدفعـــــه · وقبل ان ينصرف ، اخرج من عباءته كيسا من الخيش واعطاه لي قائلاً : « يوجد في هذا الكيس الف روبيـــــة · وهذا مبلغ أولي كما اننا سنضيف بعض الاسماء الى اللائحــــــة التي رأيتها · تصبح على خير والله يوفقك » ·

وانحنيا لي ثم انصرفا · وكدت لا اصدق ما جرى ، وتنفست الصعداء مرة اخرى · وعدت الى حجرة الطعـــام لازف النبأ المثير لزوجتي وللدكتور ماكنزي ·

وكنت في صباح اليوم التالــــي في غرفة العمليات عندما ابلغت بقدوم زائر · وكان الزائر زعيم احدى لكبـــر العائلات في الكويت ، وكان يرفض دائما ان تكون له اية صلة بالارسالية الامريكية ·· وكانت هذه اول مرة تطأ فيها قدمه مقر الارسالية · وكنت لا اسمح عادة بدخول الزوار الى غرفة العمليات ولكنني خالفت القاعدة هذه المرة ·

وقف الرجل المسن يحدق بي لحظة ثم انهار ، وقال وهو ينظر الى الجريح الممدود على طاولة العمليات باكيا « يا دكتور ، لقد ادركت الان انه لولا هـــذا المستشفى لمات

ابناؤنا واخوتنا واحفادنا لانهم لن يلقوا اية عناية • وقد كنت عدوك حتى الان ، لكن اذا سمحت لي سأكون صديقك منذ اليوم » •

ثم اخرج كيسا فيه خمسمئة روبية وضعه على الطاولة وخرج وهو في ضيق شديد • وكان حتما متاثرا بما يجري في المستشفى اذ كان الجرحى يملأون المستشفى وكنا نعتني بهم •

وقد انتابني شعور كبير بالبهجة ، لان هذا الارستقراطي المتكبر قد اعترف بنا اخيرا • وظللنا اصدقاء حتى مماته ، بعد تلك الحادثة بسنوات •

ولكن تدفق وجهاء الكويت استمر طوال يومين وتجمع لدي عشية السادس عشر من اكتوبر ٦١٠٠ روبية ـ من بينها ٦٠٠ روبية من احد الشيوخ الكبار ـ بالاضافة الى عدة مئات من ارطال الارز ، وعدد كبير من البطانيات ، وكمية من الفحم تكفي مطبخ المستشفى لعدة اسابيع •

كان ذلك نصرا عظيما واخذت اردد اغنية نصر شعبية لنفسي • ولكن بالطبع بقي بعض المشككين الذين قالوا « لقد اعطوا ، لكنهم اعطوا نزرا يسيرا • » أما انا شخصيا فكنت دائما اشعر ان الكويتيين لا يدركون ما نفعله من اجلهم الا عندما نبلغهم اياه تفصيلا ويهبون حينئذ للمساعدة • وكما قال المثل « انّب رجلا حكيما وستجده يحبك » •

وعادت المدينة تقلق من احتمال هجوم جديد يكون موجها هذه المرة نحو الكويت نفسها • ووصلها مندوب من

العدو يوم ١٨ اكتوبر وسلم الشيخ سالم انذارا · وقـــد اجتمع قادة المدينة بحضور الشيخ سالم · وكان الاجتماع طويلا وعاصفا واضطر الشيخ سالم رغما عنه الى تقديم طلب رسمي للحكومة البريطانية لمساعدته · وقد قدم الطلب فعلا يوم ٢٠ اكتوبر · وتم في نفس اليوم رفض الانذار · ويمكن للمرء أن يتخيل ما كان سيحل بالكويت لو قرر الشيخ سالم ان يقف لوحده في مواجهة الاخوان · وكان الشعور العام السائد في أوساط الكويتيين هو ان الكويت غير قـادرة على هزيمة الاخوان مرة ثانية · وبالطبع فان وراء هـــذا الشعور اسبابا وجيهة ·

وكانت في الكويت سفينة حربية بريطانية ووصلت اليها سفينة ثانية يوم ٢١ اكتوبر · كما وصلت طائرة يـــوم ٢١ أكتوبر وقامت بعد الظهر باستطلاع لتحديد مواقع العدو · وكنت اشرب الشاى مع المعتمد السياسي البريطاني حيـــن دخل الطيار · وقد ذكر انه لم ير شيئا · وكان واضحا لـــي ان العدو لن يكون الا في مكان واحد هو الصباحية ، وهـــي مجموعة ابار على بعد ثلاثين ميلا جنوبي الكويت ، حيـــث تتوفر المياه والمرعى الحسن للجمال · كما يمكن هناك العناية بالجرحى مدة طويلة · وسألت الطيار عما شاهد في الصباحية فقال بيوتا واشجار نخيل · واخبرته ان الصباحية ليست سوى آبارا موحلة. ونصحته ضاحكا بأن يأخذني معه في جولتـــه القادمة ·

وقد دهشت عندما طلب مني مرافقته في صباح اليوم التالي · ووجدنا الصباحية بسهولة وكانت خيم الاخوان هناك ·

والقيت من الطائرة رسالة رسمية موجهة الى قائـــد قوات الاخوان فيصل الدويش · وقد ربطت الرسالة باشرطة طويلة حمـراء وبيضــاء وزرقــاء وقد تضمنت تهديــــدا لفيصل بالانسحاب من الاراضي الكويتية والا فأنه سيقصف ويجبر على الانسحاب · وكان لدينا في الطائرة بضعة قنابل · وسأذكر دائما كيف كتب لي الطيار ورقة عندما شاهد معسكر العدو جاء فيها «يا الهي ما هذا الهدف البسيط» ·

كانت الطائرة من طراز د· هـ· ٩ حيث للطيــــار غرفته الخاصة وحيث لا يمكن تبادل الحديث معه · وقد احصينــا الخيام وتفحصنا المكان من علو ١٠٠٠ ــ ١٥٠٠ قدم · وسررت عندما شاهدت رجلا يلتقط الرسالة الحكومية التي القيتها · واخذ الاخوان يطلقون الرصاص علينا من بنادقهم فاضطررنا للارتفاع في الجو · وقد خرج الرجال من خيامهم من كــل الاتجاهات وهم يحملون البنادق · وعدنا الى الكويت بعد ان قمنا باستطلاع ناجح ·

وصلت يوم ٢٢ اكتوبر سفينة حربية ثالثة وعلى متنها السير ارنولد ويلسون ، الذي كان المفوض المدني بالوكالة على العراق · وكان ويلسون احد الادمغة البارزة في العراق في ذلك الحين · وقام فورا بعقد مجلس حرب على ظهــــر السفينة · وقد حضر الاجتماع الضابط البحري المسؤول عن شعبة «الخليج الفارسي» وقادة السفن الحربية الموجودة فــي الميناء والمعتمد السياسي في الكويت ، وقائد الطائرة وانا · وتم وضع خطط تفصيلية غطت كل الاحتمالات بما فيها احتمال اجلاء الرعايا البريطانيين والامريكيين عن المدينة · كما تــم وضع خطط هجومية واخرى دفاعية شملت المعدات والحاجات

التي كان يجب احضارها من البصرة · وقد عاد السير ويلسون الى العراق بطريق الجو يوم ٢٣ اكتوبر ·

وكان كل شيء جاهزا يوم ٢٤ اكتوبر · وغادر مبعوثو الاخوان الكويت في نفس اليوم ، وهدأت المدينة · وقد انتقلت مسؤولية الموقف الى البريطانيين وشعرت المدينة بالاطمئنان · وحضر السير ويلسون مرة ثانية يوم ٢٤ اكتوبر · وكان السور مليئا بالمسلحين ونزلت وحدات بحرية من السفن الحربية البريطانية الى الشاطىء ومعها مدافع رشاشة ، وانيط بها حماية البوابات · وتم يوم ٢٥ اكتوبر وضع رجال الاشارة البحرية فوق منزل طبيب الارسالية ، وكان عليهم تامين الحراسة ليلا ونهارا · وكان سقف منزل الطبيب يطل على الميناء وعلى معظم السفن الحربية ·

ووصل قائد السرب «برنت» من العراق مع طائرتين يوم ٢٧ اكتوبر ، وطلب مني ان ارافقه في رحلة استطلاعية ·

وكان فيصل الدويش قد ارسل رسالة نارية يتبجح فيها ردا على رسالة الحكومة البريطانية التي القيتها فوق معسكره في الصباحية ·

حلقنا فوق موقع الصباحية لنجد المكان مهجورا باستثناء خيمتين او ثلاث ربما تركت لايواء الجرحى الذين لم يتمكنوا من الانتقال · وربما كان فيصل الدويش يفكك معسكره ليفر باتجاه الجنوب في نفس الوقت الذي أملى فيه رسالته تلك · وحلقنا مسافة سبعين ميلا بعد الصباحية فلم نجد اى اثر للاخوان · اذ يبدو انهم رحلوا بسرعة كبيرة ·

وما لبث قائد الجناح « برنت » أن أصبح ماريشال جو

وعين قائدا لسلاح الجو الاوسترالي واصبح مقر قيادته في استراليا ٠

وسرت شائعات يوم ٣٠ اكتوبر بأن الاخوان في الوفرة، ولكن الاستطلاع الجوي لم يرهم ولم يهاجموا الكويت مرة ثانية في تلك الفترة ٠ وغادرت اخـــر سفينة حربية مينـــاء الكويت في ٦ نوفمبـــر ، وهكـــذا نجت الكويت مؤقتا مـــن الطموحات التوسعية لابن سعود وجيشه المؤلف من المتعصبين٠

وليست هذه القصة سوى جزء عام ويسير مما حصـــل في الكويت خلال شهر بالغ الحرج ولكنها تعطينا مثلا علـــى قيمة الارسالية الامريكية في الكويت وكل العاملين فيها ٠ وكان ذلك الشهر بالنسبة للارسالية الامريكية بداية عهد جديد ٠

-٨-

التخلف والتقدم في الكويت

العادات والأخلاق العربية

النظرة للحياة

شهد يوم ١٥ ابريـــل (نيسان) عام ١٩١٢ احدى أسوأ الكوارث في حوليات البحر ٠ فقد كانت الباخـرة الجديـدة تايتانيك والملحقة بخط النجمة البيضاء ، والتي تزن ٥٣،٢١٠ طن وطولها ٨٥٢½ قدما وقوة محركها ٥٠ر٠٠٠ حصـان ، تقوم برحلتها الاولى عبر الاطلنطي عندما اصطدمت بجبل من الجليد وغرقت في اقل من ثلاث ساعات ٠ وكان على متنهـا ٢٢٠١ شخصا غرق منهم ١٢٩٠ ونجا الباقون ٠

ومن بين قصص البطولـة العديـــدة التي ظهرت في الصحف عن الحادثة رسخت واحدة في ذهني ٠ ولا استطيع ان اجـزم بصحة القصة ، ولكـــن الموقف الاخلاقي الذى وراءها اهم ما فيها ٠

تحكي القصة ان مليونيرا كان يقف على ظهر السفينة وهي تغرق منتظـــرا نهايته عندما شاهد امرأة بين المسافرين

لا ترتدي حزام نجاة • ونزع المليونير الحزام الذي كان يرتديه وأعطاه للمرأة • ولم يكن لديه وقت للبحث عن حزام آخر لأن السفينة غرقت • وغرق المليونير بينما نجت المرأة •

بعد ذلـــك بشهر ، كنت ابحر في قاربي باتجاه قارب البريد الذي وصل الكويت لتوه • وكان معي في القارب عدد من العرب ، كنت أعرف معظمهم • ودار الحديث حول تحطم الباخرة تايتانيك فأخبرتهم القصة المذكورة أعلاه • وقد أثارت القصة الكثير من الاهتمام والتعليق • وقد قال لي رجل اعرفه معرفة جيدة : «يا دكتور لو كنت مكان المليونير هل تفعل مـــا فعل ؟»

واجبته «ارجو ذلك ، ولكن الامر يتطلب الكثير مـــن الشجاعة • فقال لي «انا لن افعل ما فعله» ثم سالني «لنفترض ان المرأة كانت زوجتك ، هل تعطيها حزام نجاتك ؟» •

واجبته «نحن الغربيون نعتبر سؤاليك اهانة • فالنسبة لنا تاتي المرأة دائما قبل الرجل ، والضعيف قبل القوى • وانا لا أتصور غربيا يترك زوجته تموت أمام عينيه دون أن يحاول عمل شيء ما » •

وتابع الرجل « يا دكتور ، دعني أسألك سؤالا آخــر • لو تناولت السم انت وزوجتك وكانت لديك جرعة مضادة تكفي لشخص واحد ، فهل تتناولها انت ام تعطيها لزوجتك ؟ » •

وقلت له « ان الجـــواب على سؤالك الاخير هو نفس الجواب على اسئلتك السابقة • فالتضحية بالنفس هي جوهر ديننا المسيحي » •

وانفجر قائلا : «انا اعرف ما الذي ستقوله • انـــك

ستقول ان المسيح قد ضحى بحياته لانقاذ الناس مـن الجحيم وانه علم الناس كيف يكونون مثله · حسنا ، نحن لسنا كذلك فانا ساتناول الجرعة بنفسي » ·

وانا اعتقد ان الرجل كان صادقا تماما في كلامـه وانه حتما سيضع نفسه أولا · وانا اعتقد كذلك ان موقفه مـن التضحية بالذات كان موقفا عامـا بين الكويتيين في تلـك الايام ·

وقد مضى اربعون عاما على هذه المحاوره ، وانا اشك بوجود العديد من الرجال في الكويت الذين يتكلمون بتلـك الطريقة الغليظة · وانا مؤمن بان المستوى الاخلاقي قد ارتفع وان اهالي الكويت اصبحوا يتفهمون قول الرب «لا يملـك أي انسان حبا اكثر من هذا ، ان يقدم الرجل روحه من اجـل اصدقائه » · وحتى صديقي المشكك في طيبة الدوافع البشرية والذي ما يزال حيا حسب علمي ، أصبح اقل تشكيكا بعد ان كبر في السن ولا اعتقد انه سيتكلم اليوم بنفس الطريقة التي تكلم بها عام ١٩١٢ ·

وحدثت كارثة بحرية ثانية بعد عامين ، أي في أبريل عام ١٩١٤ ، في الكويت وقد أعلن الحجر الصحي على كل السفن القادمة الى الكويت · ونظرا لعدم وجود محطة ملائمة للحجر الصحي في ذلك الوقت ، طلب من السفن القادمـة الرسو خارج الارصفة وكانت السفن ترسو عادة خارج الميناء حتى تتم ايام الحجر الصحي المفروض عليها ·

ووصل الى الميناء يوم ١٤ ابريل مركب عليه ثمـانية مسافرين يهود منهم خمسة نساء ورسا المركب خارج الارصفة· وقد هبت اثناء الليل عاصفة شديدة صحبتها ريح عـالية · وانقلب المركب وسقط المسافرون الثمانية في البحر · وقد غرق

اليهود الثمانية بينما استطاع البحارة انقاذ انفسهم والسباحة الي رصيف الميناء ٠

وارسل الشيخ من يدعوني لمقابلته وطلب مني أن افحص جثــث الغرقى التى تم انتشالها من البحر ٠ واثناء تقديم تقريري للشيخ اخبرته ان الملاحين لم يحاولوا انقاذ اي مــن المسافرين ولم يعلق الشيخ على قولي ٠ وعلينا ان نتذكر ان الليل كان حالكا والبحر عاليا ، وانه من الصعوبــة بمكان انقاذ أي من المسافرين المرعوبين ٠ ولكن المركب ، مــن ناحية ثانية ، كان قريبا من الرصيف وكان هناك العديد من الناس ، معظمهم من البحارة ، وقفوا يتفرجون على الكارثة ولم نسمع باية اعمال بطولية ، ولم تجر اية محاولة ، حسب معرفتي ، لانقاذ الضحايا ٠ وقد ترجع لامبالاة الكويتيين غير العادية الى كون الضحايا مــن اليهود ، رغم انني اشك بأن ايا مــن الكويتيين قد علم بأن المسافرين يهود قبــل وصول ملاحي المركب الى الميناء ورواية ما حدث ٠

-٩-

معاملة الحيوانات

لا يلقى الحيوان في الجزيرة العربية ، بشكل عـــام ، اية عناية او تقدير الا اذا كان لـــه بالطبع فائدة آنية فيقوم صاحبه باطعامه والعناية به الى حد ما ٠ ورغم كل ما كتب عن حب العرب للخيول تبقى حقيقة معاملة العرب السيئة للخيول بحيث نجدها تعاني ألما في الظهر وكسورا في الركب ومعداتها دائما خاوية ٠ وحتى الخيول الاصيلة تبقى مهملة ، واسطبلات بعض الشيوخ العرب مدعاة للخجل ٠

فالبرادع تبقى على ظهور الخيل اياما وهي متسخة ولا يجري أي تفقد منتظم للخيول ، وغالبا ما تكون حوافرهـــا بالية ٠

أما الجمل فوضعه افضل ، ربما لانه عندما يقــرر أن لا يشتغل اكثر يبرك على الارض ويموت ٠ ويوقد العرب نارا او يضعون قطعة حديدية حامية على ذنب الجمل المريض ، ولكنهم يفشلون في دفعه للوقوف على قدميه ٠

وينشأ الاطفال العرب في جو من القسوة ، ويسمح لهم

بالتصرف على هواهـم لان الكبار ، بكل بساطة ، لا يعرفون معنى القسوة • ويقوم العرب في الربيع باصطياد العصافير بالشباك الكبيرة أثناء هجرتها السنوية ويأكلونها بشهية • ولكن الاطفال الكويتيين يستعملون هذه العصافير كألعـاب • ويمكن شراء اجمل عصفور في أوج الموسم بقـرش امريكي واحد • ويجرى ربط احدى رجلي العصفور او كليهما ، ثم تقص اجنحته بمهارة لمنعه من الطيران بعيدا • واذا كـان العصفور من النوع المقاتل يجرى ادخـال ريشة صغيرة في منقاره عند الانف لمنعه من النقر • وبعد ذلك تبدأ الساعـات الاخيرة المحزنة للعصفور ، اذ يلوح بـه في الهواء للتسلية واللهو •

ولكل بيت عربي حصته من القطط ـ الجائعة والجربانة والكئيبة وذات العين الشريرة ـ ولا يطعم هذه القطط أحد ، ولذلك فهي دائما تتحين الفرصة للسرقة وعندما تسـرق يقومون بضربها • اما كيفية تمكن القطط الصغيرة من البقـاء على قيد الحياة فهي مشكلة في حد ذاتهـا اذ يقوم الاولاد بالامساك بها ويربطون خيطا محكما حول عنقها ويلوحـون بها في الهواء او يجرونها على الارض حتى تموت • ولـم اشاهد طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية اى ولد عربي يعامل قطا برفق • ومن المستحيل اقناع العربي بانه لو اطعم القط بانتظام على الاقل لاصبح لديه حيوان يحبـه الغربيون ويعجبون به •

اما الكلب فيلقى أسوأ أنواع المعاملة واقساها • وهناك رياضة شائعة بين الاولاد في الكويت وهي اطلاق عدد مـن الكلاب على كلب مريض او جريح • ويحيط الاولاد بالكلاب وهم يصرخون ويحثونها على مهاجمة الكلب الضعيف ، ولا

يتركونها حتى تقطعه اربا · اما اقسى ما يفعله الاولاد للكلاب فهو مزجهم قطعا من الزجاج بالرز واطعامه للكلاب ، ثـــم التسلي عليها تموت ببطء ، او على الاقل السرور بمعرفـــة انها ستموت ببطء والم فيما بعد ·

والعربي صياد ماهر لكنه ليس رياضيا · ومع استخدام السيارة اتخذ صيد الغزلان طابعا منفرا بالنسبة لمحبي. هذه الرياضة وصيد الحيوانات · فقبل استخدام السيارة ، اى منذ بضع سنوات ، كان صيد الغزلان يتطلب المهارة والصبـــر والتحمل ، وكان الصياد يصطاد كل غزال على حدة · امـا الان فان الصياد يقود سيارة «الفورد» ويدهس بها الغزال · وما حظ الغزال في الافلات من سيارة لها محرك قوتــه ٢٥ حصانا في الصحراء الجرداء · وهكذا ترجع سيارات «الفورد» من الصيد ملطخة بالدماء ومحملة بالغزلان · وقد احضـرت احدى السيارات اربعين غزالا ذات مرة · ونحن نفعل ما فـي وسعنا لاثارة الرأى العام ضد هذه الامور ، ولكن يبدو ان المذبحة ستستمر الى ان تختفي الغزلان من الوجود ·

-١٠-

سرقة وأرجاع المسروق

يوم ٢٢ يناير عام ١٩١٥ قامت اربع نساء من عائلة كويتية كبيرة بزيارة زوجتي . وكان منزلنا الجديد ما يزال يثير الفضول لاننا انتقلنا اليه في اكتوبر عام ١٩١٤ فقط . وكان اصدقاؤنا يبدون اهتمامهم بترتيب الحجرات وبأثاثنا وبزخرفة البيت . ولم تكن معظم نساء الكويت قد دخلن بيتا اوروبيا وكن كلهن متشوقات لمشاهدة بيت سعيدة الجديد (سعيدة الاسم العربي لزوجتي) والمختلف عن كل ما عرفوه .

كان بيتنا يتألف من ست غرف ، وقد صممت كل غرفة لاستعمال معين . فكانت هناك غرفة نوم فيها سريران متشابهان ومرتبان بعناية . وغرفة الملابس وفيها دولابان واحد للزوجة وواحد للزوج . وحجرة الجلوس وفيها البيانو ورفوف الكتب والكنبات . وهناك حجرة الطعام وفيها الاطباق النظيفة اللماعة والمرتبة على رفوف في خزانة حائط . وكان احد الرفوف مليئا بالسكاكين والشوك والملاعق المرتبة في مجموعات والموضوعة في ادراج مختلفة . وهناك الغرفة الخاصة باستقبال ضيوف زوجتي . واخيرا كان مكتبي حيث

اطالع واكتب واستقبل ضيوفي ٠ وعلى جدران كل غرفة صور معلقة ٠ كما كانت لدينا مدافىء لم تر الكويت مثلها من قبل وكان الكويتيون يستغربون كيف يخرج الدخان من المدخنة دون ان يوسخ الجدران والسقف ٠

كان ترتيب البيت ونظافته مصدر وحي لصديقات زوجتي فهن لم يرين مثله من قبل لان بيوت الكويت عام ١٩١٥ كانت تتسم بالفوضى وعدم الترتيب ٠ وكنت اتساءل كيف يعـرف الكويتيون اين وضعوا أغراضهم ! ، فقد كانـــت الاوســاخ والغبار في كل مكان ، ما يزال البيت المتوسط في الكويت في حـــالة فوضى ٠ ولا اتمالك ان اسأل نفسي كيـــف يتحملون الفوضى وعدم الترتيب ٠ وكانوا يوجزون الحالة بجمـــلة واحدة : «حسنا انكم تختلفون عنا ، ولا يمكننا مجاراتكم فيما تفعلون» ٠

وقد اعجبت الزائرات الاربــــع بالبيت وقضين ساعتين تقريبا وهن يتفحصن كل شيء ٠ وبعد ذهابهن بوقت قصير افادنا الخادم بأن سكينا فضيا للفاكهة قد فقـد ٠ وطلبت منه زوجتي أن يعيد البحث عنـــــه بدقة ففعل ولم يجده ٠ وكانت بصحبة الزائرات عبدتان فوقع شكنا عليهما ٠ ولم نشك ابدا بأي مـن الزئرات ٠

وما لبث أن ذاع الخبر بين سيدات المدينة بأن زائراتنا قد سرقن سكينا فضيا، والقيل والقال موضوع مفضل في الجزيرة العربية مثله في اي مكان آخر ٠ وكانت التخمينات والشائعات كثيرة ٠ وقد حضرت الزائرات لمقابلة زوجتي وهن في حـالة كرب عظيم٠ وقد قلن لزوجتي: « سعيدة ،ابحثي عنه مرة اخرى فتشي المنزل بدقة ، فلا بد من ان تجديه ٠ وحتى لو لم تجديه ما

الاهمية فلديك الكثير من السكاكين ، وفقد احداها لن يضرك بشيء » · واجابتهن زوجتي : «انتن لا تعرفن ما الموضوع ، فكل الشوك والسكاكين ، تلقيتها وزوجي كهدايا يوم زفافنا وهي بالتالي عزيزة علينا كثيرا · وهذه الهدايا مرتبة في مجموعات من ست أو اثنتي عشرة قطعة ، واصبحت مجموعة سكاكين الفاكهة المهداة الي من صديق عزيز ناقصة الان ، اذ بقيت خمس سكاكين فقط» · وغادرت النساء الاربع البيت وهن منزعجات كثيرا ·

واستمر الوضع على نفس المنوال بضعة اسابيع عادت بعدها النساء الاربعة وقلن لزوجتي : «يا سعيدة ان هذه المسألة تكاد تقتلنا · فماذا نفعل اذا وصلت الى سمع الشيخ أو اذا سمع بها رجالنا ؟ » وكنت دائما اتساءل هل تمكنت النساء من اخفاء المسالة عن رجالهن واعتقد الان انهن تمكن من ذلك · فهناك الكثير من الامور تجري في أجنحة النساء في البيوت لا يعلم الرجال عنها شيئا ·

وقالت زوجتي للنساء « كل ما اريده هو سكيني · وانا متاكدة أن باستطاعتكن اعادتها اذا بذلتن مجهودا » ·

وعادت النساء بعد بضعة أيام ولديهن خطة · وقلن لزوجتي : « سعيدة ، لقد استنتجنا ان الطريقة الوحيدة لمعرفة السارق بيننا هي باحضار ملا من احد الجوامع الى بيتك حيث تمت السرقة ليقرأ القرآن الكريم فوق رؤوسنا ـ نحن الستة · واثناء قيام الملا بالقراءة ترتجف المذنبة وتتمزق وتموت · وهكذا تظهر الحقيقة » ·

وافهمتهن زوجتي انها لا توافق على مثل هذا التصرف ، واضافت انها متاكدة من انهن يعرفن السارق وان بامكانهن ارجاع السكين اذا اردن حقا ·

وقام أحد خدم المستشفى يوم أول مارس باحضار السكين وقال انه وجدها تحت احدى الاشجار في باحة المستشفى ٠ وكانت السكين نظيفة ولماعة وبدا واضحا انهـــا لم تتعرض للطقس مدة الخمسة اسابيع تقريبا ٠ ولم اعرف وزوجتي ما الذي حدث ، لكننا كنا متأكدين من أن الخادم قد تلقى رشوة وامر بأن يقول لزوجتي انه « وجد » السكين ٠

-١١-

العين بالعين

ان العقاب التقليدي للسرقة في الجزيرة العربية قاس جــدا ٠ وهو لا يقل عن قطع اليد ويمكن تسمية العملية بترا ، لان ذراع السارق توضع فوق قطعة خشبية كبيرة ويقوم الجلاد بفصل اليد عن الذراع بضربة واحدة بالسيف أو الفأس ٠ واذا كان الجلاد غير ماهر او اذا كانت الفأس غير حادة يضطر الجلاد الى ضرب اليد عدة ضربات الى ان يفصلها عــن الذراع ٠ ويجري ايقاف النزيف الناتج عن القطع بوضع اليد في زيت مغلي، أو بكيهــا بقضيب حديد حــام ٠ وتصاب اليد المقطوعة بالغرغرينا (التهاب) ويتساقط الجلد حتى المرفق بينما تبرز عظمة من الالتهاب ذي الرائحــة الكريهة ٠ ويتألم صاحب اليد المقطوعة المــا عظيما الى ان يحدث شفاء جزئي حين يختفي الالم كله ٠ ولكن العظمة تبقى ناتئة بضع بوصات من مكان القطع ٠

وكانت اول عملية جراحية قمت بها منذ اربعين عاما في البحرين عملية قطع ذراع من الابط نتيجــة لقطع اليد ٠ وقد جاءني الرجل مــن وسط الجزيرة حيث قطعت يــده لمخالفته القانون ٠ وكانت يده متسخة ولــم تتماثل للشفاء بعد وتبرز منها عظمة طولها خمس او ست بوصات ٠ وقد مضى على قطع

يده عدة شهور · وقد تماثل عندي للشفاء وغادر المستشفى في حالة جيدة · واجريت عدة جراحات لحالات مماثلة فيما بعد · وكان قطع اليد امرا منتشرا في تلك الايام ·

ولكن تاريخ الكويت الحديث لم يشهد حالات قطع اليد اليمنى لسارق · وهذا دليل على تقدم الكويت التي أصبحت تتمتع بخدمات قوة بوليس ممتازة ·

-١٢-

الفتاة ممنوعة من الغزل

ان الفتاة العربية ، كزوجـة قيصر ، يجب ان تبقى فوق الشبهات • ويمكن حتى للشبهـة ان تكلفهـا حياتها • ويكفي أصغر انحراف عن الخلق العربي أو أقـل همس في المدينة لتدمير شرف فتاة بريئة كل البراءة •

واذا اصبح شرف الفتاة موضع تساؤل لا يمحى العـار. اللاحق بالعائلة سوى بموتها • ومن واجب الاخ الاكبر او ابن العم الاكبر ان ينفذ فيها حكم الاعدام ، وهذا القانون الذي لا رأفة فيه ولا رحمة كان متبعا في العائلة العربية زمنا طويلاً لم يعد يشعر معه أحد بأنه قانون قاس • ويكاد المرء لا يسمع كلمة واحدة على الفتاة المنحرفة • فهي قد انحرفت وهي تعلم تمام العلم مدى المخاطرة التي اقدمت عليهـا ولذلك عليها ان تدفع الثمن • ولا بد أن يكون مصيرها رادعا لغيرها •

وهناك ظروف معينة لا تقتل فيها الفتـاة وانما تعاقب بطريقة أخرى • فهي تسجن في غرفـة يجري اغلاق نوافذها وابوابها بالاسمنت • وتترك فتحة صغيرة في الجدار يمكن من خلالها امداد السجينة بالطعام والماء •

كان احد مرضاي في صيف عام ١٩١٥ تاجرا ثريا من الكويت، وكان مصابا بالسل اصابة بالغة· وكان رجلا عصاميا بدأ حياته كعامل بناء وجمع من مهنته مبلغا ـ لان معلمي البناء يأخذون اجورا مرتفعة في الكويت ـ دخل به تجـــارة اللؤلؤ ونجح · ولكنه كان مصابا بالسل ، وكـــــان واضحا انه لن يتماثل للشفاء ·

وكانت احدى بناته فتاة جميلة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ، جميلة كاللعبـــة وروحها مرحة · (كان لي الحق بصفتي طبيب العائلة بدخول جنـــاح النساء حيث كان مريضي يستقبلني دائما · ولا يسمح لاي شخص عادي بدخول جناح النساء) ·

وقد قيل لي ان الفتاة جريـــئة بعض الشيء مع الصبيان اذ تقوم بمناداتهم عن السطح أثناء مرورهم بالشارع· وشعرت بان ذلك لهو بريء تماما · لكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا انها تتبادل الرسائل مع شاب بواسطة رسول · واعتبر عملها مشينا وقد أمر والدها ، رغم انه يحبها كثيرا ، بوضعها في غرفة مغلقة وباعطائها كميات قليلة من الطعام الرديء ·

ومر أربعون يوما على سجنها ، وهي الفترة التي تعتبر أقصى حكم في هذه الحالات ولكن والدهـــا ـ الذي يحتضر ، رفض اطلاق سراحها · وقد رجوته كثيرا وذكرته بأن الدنيا صيف وان الحجرة المعتمة التي حجزت بها الفتاة أشبه بالفرن، وان حياتها في خطر بسبب الحر والجوع والوحدة · ولكن رجائي لم يشفع لها عنده ، ورفض مجرد بحث الموضوع معي ·

وذهبت للشيخ لكنه شعر بعجزه عـــن المساعدة في هذا

الموضوع وقال لي : « انا لا اتدخل ابـدا في مسائل الشرف العائلية ، والقرار يرجع الى أهل الفتاة • وهذا حقهم المطلق منذ بداية التاريخ العربي » •

ومات والد الفتاة بيـن يدي ولم انس كلماته الاخيرة : «لقد فنيت» • وكانت هذه أول مرة اسمع فيها مثل هذا الكلام من عربي يحتضر •

وظلت الفتاة سجينة اذ رفض اخوتها اطلاق سراحها • وكان مؤكدا انها اذا بقيت سجينة ستلحق بوالدها •

وبينما كان المعتمد السياسي البريطـاني يتناول الشاي عندنا ، روت له زوجتي قصة الفتاة الصغيرة التي كانت تمضي الشهر الثالث في الحجرة المغلقة • وحالما أنهت زوجتي القصة بقولها ان اطلاق سراح الفتاة لا يبدو محتملا ، وقف المعتمد عن كرسيه وهو يقول «يا الهي ، يا الهي • لن اسمح بهذا • لن اسمح بهذا • هذا الامر لن يتم» وغادر منزلنا وهو في أشد حالات الانزعاج •

ولم نعرف ما حصـل بالضبط ، لكـن يبدو ان المعتمد السياسي قد قابل الشيخ وأصر على اصدار أوامره لاهل الفتاة باطلاق سراحها فورا • وأرسل لنا المعتمد رسالة يخبرنا فيها ان الفتاة ستكون طليقة عما قريب • وذهبت زوجتي الى منزل الفتاة وكانت حاضرة عندما وصـل رجال الشيخ من القصر ومعهم امر باطلاق سراح الفتاة• وتم احضار عمال فورا قاموا بهدم الجدران • ولم تنتظر الفتاة انتهاء العمال من هـدم الجدران بل قفزت مـن الغرفة عندما هدموا فتحة كـافية لخروجها • وأخذت تركض فرحة كالمجنونة حتى سقطت مغميا عليها من الاعياء(٥) •

-١٣-

معجزة شفاء

عدت وزوجتي الى الكويت في منتصف اكتوبر عام ١٩١٧ من اجازة دامت ثلاثة شهور قضيتها في كشمير · وباشرت فور عودتي في اعادة النظام اليومي للعمل في المستشفى الى سابق عهده · واثناء تناول العشاء في نفس اليوم ، سمعنا طرقا على الباب · وكان الطارق رجلا اعرفه بالمشاهدة فقط ينتمي الى أكبر عائلة في الطرف الغربي من المدينة ـ عائلة محافظة وارستقراطية لها عدة بطون وفروع عربية حتى الصميم ، ومنازلها تغطي منطقة كبيرة ولم يكن موقف هذه العائلة وديا تجاه الارسالية الاميركية ·

وكان لمجيء زائري في الليل دلالة · فهو ربما لم يشأ أن يشاهد وهو يدخل منزل الطبيب المسيحي · واظن هذه أول مرة يطأ فيها الرجل أرض الارسالية· فلم يكن المبشرون محبوبين في تلك الايام ·

حياني الرجل بأدب وباللطف العربي التقليدي ، ثم قال لي ان ابنه البالغ من العمر سبع سنوات مصاب بالحمى وعنده تقرحات تنز قيحا وان « الاطباء » المحليين اعتبروا حالته ميؤوسا منها · وسألني اذا كنت اقبل ان اعاينه ، وكانت

علامات وجهه تدل على اليأس والقلق الشديد · وادركت ان الحاجة دفعته الى طلب مساعدة المسيحيين ·

وسرنا معا صامتين ، واخذنـــي الى الجناح الخاص بالنساء وادخلني غرفة ضيقة طويلة مظلمة وخالية من الاثاث تقريبا · وشاهدت في نهاية الغرفة كومة بلا حراك ، فاتجهت اليها · وتكلم الرجل لاول مرة منذ مغادرة منزلي : « هذا ابني ·! » ، ثم ازاح عنه البطانيات التي كانت تغطيه كلية · وكان منظر الولد محزنا بالفعل ، فقد كان هيكلا عظميا · وقد صرخ الولد عندما شاهدني ، فكلمه بلطف ورقـــة · وافهمه انني الرجل الوحيد في الكويت القادر ، بعون الله عــلى شفائه · واضاف بأنني احب المرضى ، وان كل ما اريده هو القاء نظرة عليه ·

ومنذ تلك اللحظة احببت هذا الاب الذي اصبح فعلا اقرب صديق عربي الي ·

وهدأ الولد ، وتعودت عيناي الظلمة · ولمسته فوجدت حرارته مرتفعة جدا · وكان الولد جالسا وقد الصق ركبتيه بذقنه· وما لبثت ان وجدت انركبتيه متيبستان وانهلا يستطيع مد رجليه · وأفاد والده بأن ركبتيه متيبستان منذ عدة أسابيع وانهما تزدادان تصلبا · وكان فخذاه واحـــد كتفيه ملفوفة بقماش تفوح منه رائحة كريهة ناتجة عن تقيح مفاصل الولد المريض · وعندما نزعت ثياب الولد وجدت تقرحات تنز قيحا على الوركين وعلى كتف واحد · وبـــدا من الواضح ان هذه التقرحات تصل حتى المفاصل ·

ولم استعمل الادوات الطبية لفحص الولد · وكان الولد هادئا تماما ينظر الي وفي عينيه تســاؤل · وقد اعدت لف وركيه وكتفه بالقماش برقة ، ثم غطيته بالبطانيات ·

وسألني والده بعد ان خرجنا « ماذا تعتقد ؟ ان «الاطباء» المحليين يقولون ان شفاءه غير ممكن٠ فهل بامكانك انتعطيني اي امل ؟ » ٠

واجبته «يا والدي ان حالته يائسة حقيقة وشفاءه غير ممكن٠ ولكن هناك شيئا واحدا يمكننا عمله وهو شق التقرحات وتنظيفها حتى اصولها ٠ والمسألة مخاطرة ، فقد يموت الولد على طاولة العمليات ٠ ولكن هذه فرصته الوحيدة ٠ واذا لم نفعل له شيئا فسيموت قريبا جدا ٠

نظر الي الوالد نظرةثاقبة للحظة،ثم تكلم ببطء ووضوح: « يا دكتور ، انني اصدق كل كلمة قلتها ٠ وابني بين يديك ٠ وسيشفى باذن الله » ٠

وقلت له « حسنا ، اريدك ان تحضر ابنك صباح الغد الى المستشفى لكي نقوم باعداده للعملية ٠ كما اود ان يظل بعد العملية في المستشفى لكي يكون تحت اشرافي ليلا ونهارا » ٠

اعترض الرجل قائلا : « لو سمحت يا دكتور ، انا لا اريد ان يعيش ابني في المستشفى فانا متأكـــد بأن صاحب البيت المجاور سيسمح لنا باستعمال بيته ٠ وارجو ان تحضره بعد العملية الى البيت المذكور»٠

ولم يكن ذلك الترتيب مثاليا ، لكنني قبلته لتجنب تعقيـد الموضوع ٠ وتمت العملية صباح اليوم التالي ٠ وقد انتابني قلقشديد اثناءها لان الولد كان هزيلا وضعيفا بشكل يرثى له، وكانت حرارته مرتفعة ٠ ولم يكن البنسلين او ادوية السلفات معروفة في تلك الايام ولحسن الحظ كانت كمية صغيرة من الكلوروفورم كافية لابقاء الولد غائبا عن الوعي ، فاشتغلنا بأكبر سرعة ممكنة ٠ ونقلناه بعد العملية الى المنزل المجاور حيث بقي عدة أسابيع ٠

ولا اذكر الان عدد المـــرات التي اضطررنا فيها لاعادة اجراء الجراحة له ، لكن اعتقد انه كان اربع او خمس مرات نجحنا تدريجيا حتى في فك التيبس في مفاصل الركب ، وتمكن الولد من مد ساقيه وطيهما بشكل طبيعي تماما ·

وكان صراعنا ضد مرضه طويلا ومريرا · فقد كان علينا تنظيف الجروح يوميا ، وكانت ازالة اللصقات المتسخة عملية شاقة · وما ازال اسمع الولد الشجاع وهو يصرخ «يا دكتور لا تضع لصقات اكثر من العدد اللازم » ·

وكان الوالد يعبر عن تقديره بين الحين والآخر باعطائي مبلغا من المال · وقد كتبت في مفكرتي بتاريخ ١٢ يناير عام ١٩١٨ ما يلي : «لقد اعطاني والد الفتى المريض حتى الان مبلغ خمسمئة روبية مكافأة على معالجة ابنه » وكانت القوة الشرائية للروبية في ذلك الوقت ثلاثة اضعاف قوتها الحالية · وتكلفة المستشفى بسيطة جدا · وتلقيت دفعات اخرى من والد الفتى بلغـت في مجموعها آلاف الروبيات · وكان دائما يدفع لي بالعملة الذهبية ، ومن تلقاء نفسه ·

وبمرور الشهور تحققت المعجزة · وتماثـل الفتى تماما للشفاء · وحل اليوم السعيد في منتصـــف صيف عام ١٩١٨ واخبرت الوالد ان ابنه قد تعـــافى وقام الوالد بالقاء خطبــة قصيرة على ولده ، اشعر الآن بالاسف لعدم تسجيلها · ولكن فحواها كانت كالتالي :

« ولدي الصغير ، لا تنسى ابدا انك مدين بحياتك لهذا الطبيب فلا شك في هذا اطلاقا ·وقد اصبح لك من الآن وصاعدا والــدان ، ولكن الطبيب يأتي قبلي · احببه واخلص له طوال حياتك · »

وقد زرت بيتا كويتيا بارزا بعد ذلك بفترة وكان في غرفة الاستقبال اثنا عشر رجلا من وجـــوه المدينة من بينهم والد الفتى ٠ وحال ما شاهدني بدأ يخبر أصدقاءه عن مرض ابنه وشفائه المثير للاعجاب ٠ وكان يبدو ان واحدا او اثنين من الحاضرين لم يسمعا القصة من قبل ٠ ولذلك قام الوالد بارسال من يحضر ابنه ٠ وعندما وصل الولد امره والده بخلع ملابسه لكي يرى كل الحاضرين الاثار التي تركتها سكين الجراح ٠

وعندما خلع الولد ثيابه، قام والده بالقاء خطاب مؤثر في الحاضرين حثهم فيه على التعامل معنا ٠ وقد قال لهم : « الى متى ستظلون ترفضـــون التعامل مع طبيب الارسالية ؟ انكم تستمرون كما فعلت انا ، في وضع حياتكم وحياة ابنائكم بين ايدي المشعوذين المحليين الذين لا يفقهون شيئا في الطب ٠ فقد قالوا جميعا ان ابني سيموت ٠ وانتم تعرفون رأيهم هذا ٠ وكنا نعتقد انهم على صواب ولكنهم كانـــــوا مخطئين والحمد لله ٠ انظروا الى ولدي انه قوي وسمين وبصحة جيدة ٠ وكلكم تعرفون سوء حالته المرضية ٠ من الذي شفاه ؟ هذا الطبيب ، بعد الله ٠ وانا فخور بان يكون لي صديق مثله ٠ فهؤلاء الاطباء العصريون يذهبون الى المدرســــة والكلية ، ويتلقون العلم ويكتسبون المعرفة ٠ أرجو منكم جميعا أن تصغوا لنصيحتي ٠ ودعوا طبيب الارسالية يهتم بكم وبعائلاتكم عندما تحتاجون لاية عناية طبية » ٠

ومع مرور السنين توثقت علاقتي بوالد الفتى وتعمقت ٠ وبدا وكأنه يعرف ان بمقدوره مساعدتي على انجاح الخدمات الطبية الخاصة بالارسالية وانه مصمم على مساعدتي ٠ وكان يؤمن بخدماتنا الطبية لدرجة تجعل دعمه لها أمرا طبيعيا ٠ وكان يحضر الي باستمرار المرضى من معارفه وأصدقائــــــه الارستقراطيين ، ومن الفقراء والمحتاجين الذين كان يجمعهم

من الاماكن العامة والشوارع · وكان من نوع الرجال المشغولين جدا والذين يجدون مع ذلك الوقت لعمل كل ما يبغون ·

وكانت صداقته لا تقدر بثمن اذ فتحـــت لي الباب تلو الباب لبيوت كدت اياس من دخولها · واصبحت لي صداقات في كل هذه البيوت · وكـــــان والد الفتــى محبوبا ومحترما ومقبولا وكلمته مسموعة من الجميـــع نظرا لخلقـــه الحميد واستقامته · ولم اسمع في حياتي شخصا يطعن في نزاهتـــه واخلاصه · وانني متاكد انه لولا مساعدة والد الفتى لاحتاجت الارسالية الاميركية الى عدة سنين اخرى كي تلقى القبول من غالبية سكان الكويت ·

كنت يوم ١٢ فبراير عام ١٩٢١ مع زوجتي في بومباي في طريق عودتنا الى الولايات المتحدة لقضاء اجازتنا الثانية ، وكان والد الفتى في الهند في رحلة عمـــل · فقررت ان ازوره واودعه · وقد غادر قطارنا بومباي الى كلكتا الساعة التاسعة مساء وكنا نعتزم ركوب سفينة من كلكتـــا الى اليابان لزيارة اخت زوجتي التي كانت مدرسة في مدرسة « جوشي غاكوين في طوكيو » ·

وكان الجو حارا تلك الليلة ، فوقفنا على رصيف محطة القطارات تحت مروحة كهربائية كبيرة · ولمحنا في هذه الاثناء والد الفتى واحد افراد عائلته يتجهان الينـــا · وكان يتبعهما حمالان يحمل كل منهما سلة كبيرة علـــى راسه وقد أمر والد الفتى الحمالين بوضع السلتين على الارض وكانت احداهمـــا ملأى بالزهور وفيها اكليلا ورد · وأمرهما والد الفتى بدخول عربة القطار الخاصة بنا وتزيينها بالزهور ، وما ان انتهيا حتى كانت العربة شبيهة بحجرة العـــروس · ثم قام والد الفتى بوضع اكليل ورد على عنقـــي واكليل آخر على عنق زوجتي تبعا للتقاليد الهندية ، وتمنى لنا سفرة سعيدة بلغته

العربية الجميلة · امـــا السلة الثانية فكانت مليئة بكميات كبيرة من انواع الفواكه المختلفة كالمانجـــا والعنب والموز والبرتقال وغيرها ، وبكميات تزيد كثيرا عن كفايتنا في هذه الرحلة التي تستغرق ٣٦ ساعة ·

وصرف والد الفتى الحمالين ثم ظل معنا الى ان بدأ القطار بالتحرك · وبعـــد ان دخلنا عربتنا اغلق صديقنا بابها ، ثم ناولنا من النافذة عصا جميـــلة للمشي كتذكار أخير ·

وقد جاء في مفكرتي بتاريخ اول مارس عام ١٩٣٢ :
« مات والد الفتى عنـــد الفجر نتيجة لذبحـــة قلبية · وهو أفضل وأقرب صديق لي في الكويت · مات عزيزا » · وقد كتبت اخر كلمتين بالعربية ·

ولم تتخلل صداقتنا التي دامت خمسة عشر عاما اية شوائب او خلافات · فقد كان الرجـــل مسلما متعصبـــا ومخلصا ، ولكنه على استعـــداد دائم للاقرار بحسنـــات ومميزات الدين المسيحي ولتبيان هذه الحسنات لمن حوله · وكانت حياته العائلية مثاليـــة ، وله زوجة واحدة · وكنت اعالجها كلما دعت الحاجة · وكانت سيدة محترمة · وكانا متعلقين ببعضهما البعض ورفيقـــين حقيقيين حتى نهايـــة حياتهما ·

وقد شاهدت ابن صديقي الذي أشفيته من مرضه ، منذ سنة في الكويت · وهو يحب ان يراني دائما · ولا يخطر ببال من يراه بهذه الصحة والقوة انه كان قـــاب قوســـين أو أدنى من الموت وهو صغـــير · وقد بدا شفاؤه صعـــب

التصديق في ذلك الحين ، وما زال صعب التصديق بعـــد ثلاثين سنة . ولم افكر لحظة في بداية العلاج انه سيشفى حقا . ومع ذلك شفي واصبح سمينا وقويا ويبلغ عمره الان اربعين عاما تقريبا ويحتل منصبا حكوميا هاما في الكويت. وكما يقول العرب دائما « ليطل الله في عمره » .

-١٤-

مهتد من الأسلام

اخذ شاب ايراني في اوائـــل عام ١٩٢٠ يتردد على المستشفى واقام صداقة مع حارسه وكان الايراني صوفيا ، وقد قارن مطولا بين حسنات الاســـلام والمسيحية ، وارتاح للمسيحية اكثر · وقد تم تعميده يوم ٤ ابريل عام ١٩٢٠ ، يوم أحد ، الرب ، وتناول العشاء الرباني وحالما انتشر الخبر في السوق ، تحول الناس ضد الايراني · ورفض الجميع تشغيله ، وكان يجد صعوبة في شراء الشاي والسكر والمواد الضرورية الاخرى ، لان الباعـــة كانوا يرفضـــون بيعه · وأخذت فلوسه تقل تدريجيا ، وجاءني يطلب عملا ·

ويؤمن كل مبشر بان على المهتدين الى الدين المسيحي ان يعتمدوا على انفسهم فمن الواضح انه حالما يعطى احـــد المهتدين قرضا او وظيفة من الارســـالية ، يصبح عرضـــة للاتهام بان الارسالية قد رشتـــه او اشتـــرته كي يصبح مسيحيا · وهذه المسألة صعبة الحل ، او لم يجر حلها على الاقل حتى الآن · فالجمهـــور يرفض تشغيـــل المهتدي او الساعي الى المسيحية ، وعندما يضطـــر الاخير الى قبـــول مساعدة الارسالية تصبح مسالة حقيقة ايمانه عرضة للشك ومما يعقد المسألة كون العديد من المتشردين يسعون لاعتناق المسيحية بهدف الحصول على وظيفة ذات راتب جيد ·

وفكرت في هذه الامور كلها عندما طلب مني الايراني ايجاد وظيفة له · وابلغته ان قيمتـــه كمسيحي في الكويت ستكون اعظم بكثير اذا استطاع الاعتماد على نفسه وتجنب مساعدة الارسالية المالية · فوافـــق على كلامي لكنه قال لي : « ماذا يمكنني ان افعل ؟ فليس هناك من يشغلني » ·

وكنت اعرف ان قوله صحيـــح ، وانــه بالرغم من المبادىء والنظريات يجب علي أن أقدم على مساعدته اذ لم يكن أمامي خيار اخر ·

وكان الايراني بارعا في العناية بالخيول وكانت هناك مناسبات عديدة شاهدته خلالها يهتم بحصاني · وطلبت منه العناية بحصاني فوافق على الفور · وتعود حصاني عليه واحب هو الحصان واصبحا صديقين حميمين · وقد علم الحصان كيف يتبعه ، وكان يأخذه في الشتاء بعد عودتي من مشوار طويل ويريحه نصف ساعة حتى يزول المعرق عنه وتخف حرارته ثم يدخله الى الاسطبل · اما في الصيف فلم يكن هذا الاجراء ضروريا · ونادرا ما كان الايراني يستعمل اللجـــام ، لان الحصان كان يطيعه عندما يتكلم اليه · ولم يكن الحصان ليتبعني بتاتا · أما الايراني فكانت له طريقته الخـــاصة في معاملة الخيول ، لانه كـــان شابا رقيقا ، وقد سمعت أنه يمتلك مزرعة صغيرة ما بين بوشهر وشيراز في ايران ، لكنني لم اتأكد من صحـــة هذه المعلومات · وظل الايراني فترة سعيدا جدا في العمل معنا وساعدته عــلى استرداد صداقته مع حارس مقرنا ، وهو أيضـا مسلم جاء من شمال الهند وتحول الى المسيحية ، وبالاضافة الى ذلك، كان الحارس يتكلم الفارسيـــة بطلاقة · وقــد ازالت تلك الصداقة الوحدة عن نفس الايراني · ولكنهما كانا يختلفان بين الحين والاخر ، وكان الايـــراني السبـب في الخلاف

باستمرار ، لان معاشرته صعبة حيث كان عصبي المـزاج ، سريع الغضب فخورا بنفسه كثيرا • وكان يستغل معرفته بان الارسالية تخشى اغضابه لانه يسعى الى اعتناق الدين المسيحي لتامين حاجات خاصة ، او للحصول على معاملة خاصة من الارسالية اذا اخطأ • ويعرف كل من له قدر بسيط من الخبرة في التعامل مع الساعين لاعتناق المسيحية هذه الامور جيدا •

وقد ازداد تصلب الناس تجاه الايراني وقاموا في ١٣ يوليو عام ١٩٢٠ بضربه وتمزيق ثيابه وسرقة ساعته في السوق ، لانه ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر ، وهي تفضيل المسيحية على الاسلام • فليس هناك مجـــال للتساهل مع المرتدين •

وحضر الايراني في مساء اليوم نفسه لمقابلتي • كانت ثيابه متسخة وممزقة وروى لي قصته ـ التي بدت صحتها واضحة ـ ثم ختم كلامه بقوله ان الحياة لم تعد تطاق في الكويت وانه مضطر لمغادرتها • ولم تكن لديه اية فكرة عما سيفعله او الى اين سيذهب • ولم يكن بامكانه العودة الى قريته لانه اصبح مسيحيا •

فكرت في الامر بعد ذهابه ثم قـــررت ان اقابل كبير قضاة الكويت • ورغم تاخر الوقت ركبت حصاني واتجهت الى منزله • وحالفنـي الحـظ لان الشيخ كان في منزلـه ولم يكن عنده احد ، وكـان يستريح في حديقـــة منزلـــه نظـــرا لشـــدة الحـــر ، وقد أصغى الى قصتي بتـــأدب وبشيء من العطف ، ثم قال لي : « لن يتكرر هذا • فانا اعتقد ان الديانة التي يعتنقها الانسان شان خاص به ويبقى بينه وبين الله • وهذا العنف والضيق امر خاطىء • ارسل

لي الرجـــل غدا عندما تكون محكمتي منعقدة في العـــــراء وساتحدث حول المسألة » ٠

ولم اصدق اذني ، فقد كانت هذه اول مرة في حياتي اسمع رجلا عربيا هاما يعبر عن رأيه في هذا الموضوع بهذا التسامح ٠

وأرسلت الايراني في صباح اليوم التالي تبعا لاوامر الشيخ وقد فضلت ألا أذهب معه ، كما ان الشيخ طلب مني البقاء بعيدا أثناء المحاكمة ، ورافق الايراني اثنان من موظفينا وبعد ان حيى ثلاثتهم الشيخ طلب من الايراني رواية قضيته ففعل باسلوب معتدل وبلهجة معقولة ، حسب رأي اللذين رافقاه ٠

سأله الشيخ : « مـــن الذي سرق ساعتك ؟ » فذكـــر الايراني اسمه ٠

« وما هي اسماء الذين اعتدوا عليك ومزقوا ثيابك ؟» وذكر الايراني اسماءهم ٠ وامر الشيخ حرسه بالذهاب الى السوق واحضار كل المتهمين ٠ وكان المدعي والمتهمون بعد وقت قصير يواجهون بعضهم البعض امام المحكمة ٠ وسأل الشيخ الايراني : « من الذي اخذ ساعتـــك » ؟ فاشار الى اللص ، فسأله الشيخ :

« هل سرقت ساعة هذا الرجل » ٠ واعترف الرجل بذلك ثم اقر بانه اعطاها الى مومس في الليلة السابقة ٠

وقال له الشيخ : « حسنا ، ستدخل السجن وتبقى فيه الى ان تعيد الساعة » وامر الحرس بابعاده ٠

واستنطق الشيخ الرجلين أو الثلاثة رجـــال الاخرين

فاعترفوا بالتهم الموجهة اليهـــم ، فأمر الشيخ بسجنهم ٠ والقى الشيخ كلمة مؤثرة في الجمـــع مشابها لما قاله لي امس ٠ وقد حذرهم قائلا : « تذكروا انني لن اسمح باساءة معاملة اي انسان في الكـــويت بسبب عقيدته الـــدينية » ، واستمر في التحدث حول نفس الموضوع مطولا ٠

وقد اخبرني المرافقان بما حدث ، بالاضافة الى عدد كبير من الحاضرين ٠ وظلت هذه القضية حديث الناس في الكويت لعدة أيام ٠

وبقي الرجال في السجن أياما ولم يتمكن الحـرس من استعادة الساعة لان المرأة التي اخذتهـا اختفت ٠ وشعر الايراني بالكآبة عندما استمر احتجاز الرجال في السجن ، وكان لشعوره سبب وجيه ـ فقد كان يعـــرف ان ما حدث سيزيد من كره الناس له ، كما ان الرغبة المسيحية مكافأة الشر بالمعروف كانت تفتعل في نفسه ٠ وقصد الشيخ وطلب منه الافراج عن السجناء ٠ وقال للشيخ ان لهؤلاء الرجـال عائلات تعتمد عليهم في معيشتهـــا ٠ ولا بد ان الشيخ قد استهجن طلب الايراني ، لكنـــه وافق عليه واطلق سراح السجناء يوم ٢٢ يوليو ٠ وقد قضوا تسعة أيام في السجن وهي عقوبة متساهلة ٠ وأمر سارق الساعة بدفع مبلغ ٤٤ روبية ، قيمة الساعة ، للايراني ٠ وقد سمعت ان الايراني قد اعاد المبلغ الى السارق ، لكنني لست متاكدا من صحة هذه القصة ٠ وعلى اي حال ، حصل الايراني على مقـدار من الثقة من جراء تصرفه المذكور ٠

وكان موقف الشيخ من الاضطهاد الديني فريـــدا في تجربتي ٠ فلم اختبر مثله قبيل حادثة الايراني او بعدها ٠ وانا مؤمن بان الشيخ كان صادقـــا كل الصدق مع نفسه

وانه عبر بتصرفه عن معتقداته ، ولكنه حسب علمي لم يكرر ابداء آرائه علنا · وقد اتخذ موقفا معاكسا تماما ، في الواقع ، في حادثة واحدة على الاقل اذ وقف الى جانب المتعصبين ضد احد المهتدين الى المسيحية · وليس هناك شك في أنه خضع لضغوط كبيرة من قبل بعض وجهاء المدينة فحتى كبار القضاة من البشر لا تتوفر لديهم الشجاعة دائما للتصرف بحسب معتقداتهم · « اذا تركت الرجل حرا ، فانت لست صديق قيصر » ·

ويرقد كبير القضاة الان في قبره ، لكنني عرفته جيدا وكانت هناك مناسبات عديدة تبادلنا فيها الحديث · وكان مسلما مخلصا وملتزما الى ابعد الحدود ، ولكنه كان في الوقت نفسه معجبا كثيرا بالمسيحية وباهتمامها بجوهر الامور بدلا من مظهرها ·

ولم يستقر الايراني نهائيا في الكويت · وكان يصاب بحالات من الارتياح والضيق النفسي ، وكانت حالات انكماشه اكثر من حالات انفراجه · لست اذكر الان ، بعد ثلاثين سنة ، متى غادر الايراني الكويت ولماذا · فحياة المرتد عن الاسلام عبارة عن معركة قاسية ، لان كل الناس يقفون ضده · وقد قال بعض الناس انه عاد الى قريته في ايران · واذا كان هذا صحيحا ، فانا اتساءل هل ترى استطاع المحافظة على ولائه لدينه الجديد ام انه استسلم لضغط الظروف وارتد الى دين آبائه · وليس لدي شك في انه يؤمن في قرارة نفسه بان الدين المسيحي هو الايمان الحقيقي · وليحفظه الله اذا كان ما يزال حيا ·

-١٥-

الصحة العامة في الكويت

لا يتوفر في المدينة الحديثة من اسباب الراحة ما هو اعظم من توصيل المياه الى بيوتنا وتركيب الادوات الصحية فيها · فان مقدرتنا على فتح صنابير المياه والتزود منهـــا بالمياه الحارة والباردة رفاهية لم يحلـــم بها اجدادنا · فالنظافة التي نعرفها اليوم ، تاتي حتما بعد الايمان ، وكان توفرها مستحيلا منذ مئة عام ·

وقد مكن توفر المياه في المنزلمن دفعها الى المرحاض، مما وضع نهاية للمراحيض القديمة غير الصحية ·

ولم تكن هذه الرفاهية ممكنة التحقيق لولا الانفـــاق العميقة والمخفية والتي لا نعطيها حقها في التفكير ونسميهـــا مجاري ، اذ تتدفق فيها كل الاوساخ من بيوتنا · وهذه المجاري احدى معجزات عصرنا ، ولا يتمالك المرء نفسه من الاعجاب الكبير بالمهندسين ومخططي المدن عندما يفكر الانسان بمئات الانفاق العظيمة التي تنقل أوساخنا ومياهنا ·

وينظر معظم الناس ، وخاصة الذين لم يعيشوا فـــي الريف ، الى هذه التجهيـــزات على انها أمر طبيعي ولا

يفكرون بما كانت عليه مدننا منذ مئة وخمسين عاما ٠

والمياه في الكويت مالحـــة وقليلة ، وهي بالتالي ثمينة ٠ وتوجد بعض الابار خارج سور المدينة توفر مياهـــا صالحة للشرب ، ولكنها صالحة للشرب فقط لان فيها نسبة معينة من عدة انواع من الامـــلاح ٠ وعندما كانت مدينة الكويت صغيرة ، كانت هـــذه الابار توفر المياه اللازمة للشرب ، ولكنها غير كافية اليوم لان عـــدد سكان الكويت اصبح ١٢٠٫٠٠٠ نسمة ٠ وفي الواقع ، كانت مياه هـــذه الابار غير كافية خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية ، عندما بدأت المدينة تأخذ مياهها من شط العرب الكبير الذي يبعد عنها ثمانين ميلا ٠ ويوجد اليوم اسطول مؤلف من ثلاثين سفينة شراعية مهمته الوحيدة الابحار ما بين الكويت وشط العرب لنقل المياه ٠ وقد تم منذ سنتين تدعيم هذا الاسطول بناقلة حمولتها ٨٠٠٠ طن ، ومع ذلك فما تزال حاجـــة الكويت الى المياه العذبة اكبر مما يتوفر لها ٠

ويجري هذه السنة ، عام ١٩٥٠، اعداد خطة محددة لبناء معمل كبير لتحلية مياه البحر يتمكن من توفير المياه لـ ١٢٠٫٠٠٠ نسمة ٠

وتفتقر الكويت حاليا الى المـــادة الاساسية للوقاية الصحية ، وهي الماء ٠ ومن المحتمل ان تحل هذه المشكلـة باستعمال مياه البحر ٠ فمن السهولة الاعتماد على ميـــاه البحر ، وهي صالحة تماما لاغراض الوقـــاية الصحية ، ولاعمال البلدية مثـــل رش الشوارع بالماء ٠ وان معمل

انابيب الاسبستوس* (الحريـــر الصخري) الذي أنشأتـه حكومة البحرين حديثا سيحـــل مشكلة تآكل الانـــابيب الحديدية · وبوجود مصنع التحلية الذي سيوفر ميـــاه الشرب والغسيل ، وبالاعتماد على البحر في المياه اللازمة للاستعمالات الاخرى ستتمكن الكويت من توفير حاجتهـــا من المياه ·

ويحتاج كل هذا الى مقدار كبيـــر من المال ، ولدى الكويت مقدار كبير من المـــال · وسيتزايد ما لديهـــا من المال اكثر فأكثر في المستقبل · فقد شحن من ميناء الكويت ١٢ مليون طن من النفط عام ١٩٤٩ ، ولا تتردد الكويت في انفاق الاموال على تحسين وتطوير خدماتها المدنية ، كما تدل على ذلك انجازاتهـــا في السنين الثلاثة الماضية · اذ تمت اعادة تعمير مساحات واسعة من المدينة ، بما فيها كل مباني الميناء والجمارك · وقد كلـــف المستشفى الحكومي الجديد مبلغ مئة الف جنيه استرليني ، ويعتبر مفخرة لكل من اسهم في بنائه ·

ولكن نظام الوقاية الصحية الافضل غير متوفر فـــي الكويت حاليا · ويجري الان بناء مراحيض في عدد كبير من المنازل · كما يجري تركيب هذه المراحيض فوق حفرة عميقة وتكون في معظم الحالات عبارة عن خزانات عفنة لا يجري تنظيفها الا فيما ندر · ولكن عددا كبيرا من الناس يفضلون تنظيف الحفر بين الحين والاخر ·

---

* الاسبستوس : الحرير الصخـــري ، معدن لا يحترق ولا يوصل الحرارة ويكون على شكل خيوط تصنـــع منها الاقمشة والادوات غير القابلة للاحتراق ·

وهناك رجال يمتهنون تنظيف هذه الحفر ، وعادة ما نراهم يتجولون في المدينــــة اثنين اثنين وينادون بأعلى صوتهم معلنين استعدادهم لتنظيف حفر المراحيض ، ويحمل كل من هؤلاء سطلا وحبلا • وما زلت اذكـــر جيدا رجلين كانا يمارسان هذه المهنة • كان الرجـــلان فاقدي البصر « ويجر كل منهما الاخر » عبر الشوارع « دون ان يقعا في الحفر » • وكان منظرهما مألوفا في الكويت لسنين عديدة•

وكانت عملية تنظيف هذه الحفر تنطوي على خطــر كبير وهو خطر استنشاق الغازات السامة الثقيلة المتواجدة دائما في اسفل الحفــــر • ويتعرض العامل الى احتمال استنشاقه للغازات فجأة وغيابه عن الوعي • وعادة ما لا يتخذ عمال التنظيفات اية اجراءات وقائيـــة لمجابهة حالة طارئة كهذه•فهم لا يضعون سلما داخل الحفرة ولا يحملون معهم حبلا اضافيا • ولايمكن للعامل الذي خارج الحفرة ان يساعد رفيقه لوحده• ولا يكون هناك عادة من يساعده• ويموت الرجل الذي في الحفرة خلال لحظات •

وحتى في الحالات النادرة التي يتوفر فيها سلم وحبل ورجل ثالث اثناء الحادث يبدي الحاضرون ترددا طبيعيا في النزول الى الحفرة الخطرة • وفي الواقع ، ان انقاذ من في الحفرة صعب جدا حتى لو توفرت الرغبة التامة في انقاذه ، هذا اذا تركنا جانبا خطورة محاولة الانقاذ فان لف حبل تحت كتفي الرجلالفاقد الوعي والملقى على الارض والمغطى بالاوساخ يتطلب وقتا وقوة • وفي احيان كثيرة يفقد المنقذ وعيه قبل ان يتمكن من لف الحبـــل حول كتفي رفيقه ، وتكون النتيجة ميتين بدلا من ميت واحد •

وقد سجلت أحدى هذه الحــوادث التي حصلت في

الكويت في ١٤ اغسطس عـــام ١٩٢٠ · فقد وصلت الى المنزل وشاهدت سلما انزل في الحفــرة ورجلا واقفا فوق ثاني اعلى درجة في السلم وهــو يحاول تعليق جثة احد الرجلين اللذين ماتا في قعر الحفــرة بواسطة حديدة لها خمسة اضلع ومربوطة بحبل متين · وقد تساءلت عن المدة التي قضاها الرجل في محاولته تلك ! ونظرت الى داخــل الحفرة فابصرت جثتين في قعرهـــا · وكانتا بلا حراك · وادركت ان ما حدث هو نفس ما يحدث دائما، فقد استنشق اول من نزل الحفرة الغازاتُ السامة وفقد وعيه ، فاندفع رفيقه وراءه محاولا انقاذه فاختنق بالغازات السامة ·

واسرعت باخذ الحبل والحديـدة من الرجل وربطت نفسي تحت الابطين بحبل اخر ، ثم قلت للرجل انني سانزل الى الحفرة وان عليه ان يمسك بطرف الحبل الذي يربطني جيدا ، واذا شعرت بانني اغيب عن الوعي فساشد الحبل شدة قوية كي يسحبني فورا بمساعدة الاشخاص الموجودين معه · وعندما بدات بالنزول حضر صاحب البيت راكضا وهو يصرخ : « لا تنزل يا دكتور ، احلفك بالله لا تنزل ، فقد مضى على وجود الرجلين في الحفرة نصف ساعة على الاقل ، وليس هناك امل في ان تجدهما على قيد الحياة · وانا لا اسمح لك بأن تجـــازف بحياتك مقابل لا شيء ، وسيتمكن رجـــالي من اخراج الجثتين بواسطة الحبـــل والحديدة · بالله لا تنزل الى الحفرة » ·

وبدا واضحا انه من السخافة بمكـــان ان انزل الى الحفرة في وضع كهذا ، فعدلت وبقيت انتظــر حتى تمكن الرجال من سحب الجثتين بالحديدة ·

وقد انتهزت الفرصة لاؤكد ثلاثة مبادىء :

(١) يجب ان يكون الرجل الذي ينزل الى الحفرة لملء السطل بالاوساخ مربوطا بحبل متين تحت ابطيه على ان يمسك رجلان قويان على الاقل بطرف الحبل لكي يتمكنا من سحب الرجل المسمم بالغازات فورا ٠

(٢) ان على عمال التنظيفات ان يعملوا كفرق مؤلفة من ثلاثة أفراد ، على الاقل ، بدلا من فردين ٠ فان رجلا بمفرده لن يتمكن من سحب رفيقه من الحفرة ٠

(٣) يجب ان يوضع في الحفرة سلم اثناء العمل ، وان تتوفر حبال اضافية للطوارئ ٠

ونلت مكافأة مالية مضاعفة على خدماتي ٠ فقد تاثر الجميع باستعدادي للنزول الى ما بدا انه موت محتم من اجل من وصفوهما بانهما صعلوكان لا يساويان شيئا ٠

وحضر رب البيت في اليوم التالي لمقابلة زوجتي ، وكنت حينئذ في المستشفى ٠ وقد اخبرها القصة كلها وطلب منها أن تاخذ مني وعدا بالا انزل الى احدى حفر المراحيض ٠ فقد كنت في نظره شخصا هاما وثمينا لدرجة لا يحق لي معها القيام بمخاطرة رهيبة كهذه ٠ وقد تاثرت كثيرا عندما اخبرتني زوجتي بمجيئه وبمدى قلقه علي واهتمامه بسلامتي ٠

وقبل ستة اعوام من تلك الحادثة تقريبا ، اي في الرابع من اغسطس عام ١٩١٤ عندما اعلنت بريطانيا العظمى الحرب على المانيا ، حدث ان دعيت في الواحدة بعد الظهر ، الى منزل على بعد ميلين من الطرف الشرقي

للمدينة . كان الطقس حارا جدا وكنت اتنـــاول الغذاء ، فركبت حصاني وانطلقت . وفوجئـــــت عند وصولي الى المنزل بوجود اربعـــة مرضى بدلا من واحـــد . وكانت اجسادهم ممددة على الشرفة بجوار بعضها . كان المرضى ثلاثة شبان اخوة واختهم الصغيرة البالغة ثماني سنوات . وكانت البنت وأحد الاخوة ميتين . واحد الاخوين الاخرين غائبا عن الوعي والثاني يستعيد وعيه . وكان على الشرفة عدة رجال قاموا باخراج الاربعة وحملهم الى المنزل . فما الذي حدث ؟ يبدو انه قبل ان تتناول العائلة غذاءها افتقدت البنت الصغيرة ، فذهب احد اخوتها يبحث عنها فوجدها في قعر بئر مهجورة . (هذا اجتهاد طبعا لان احدا لم يشاهد الشاب حيا بعد ان ذهب للبحث عن اخته ، ولكن من المؤكد تقريبا ان هذا ما حدث) . فنزل الاخ الى البئر بدون حبل وبدون اية وسائل تمكنه من الخروج منه . وما لبث ان فقد وعيه وسقط الى جانب اخته .

وافتقدت العائلة الاخ والاخت ، فلحق بهما اخوان آخران . ووجدا الجثتين في قعر البئر فهرعـــا الى المنزل لاحضار حبل . وعاد معهما عدة رجال .

ونزل الاخ الثاني ، ولكن بعد وصوله الى قعر البئر وجد ان الحبل أقصر مما يجب بثلاثة أو أربعة أقدام ، فنادى على الرجال كي ينزلوا الحبل اكثر ليتمكن من ربط جثـــة اخته ففعلوا . لكنه فقد وعيه قبل ان ينهي ربط الجثة . وما ان احضر حبل آخر حتى نزل الاخ الثالث بعد ان طلب ربطه تحت الابطين لكي يسحبوه اذا بدأ يفقد الوعي .

وكان الاخ الثاني ما يزال يتنفس فأخـــرج اولا ، ثم

اخرجت الاخت ، ثم الاخ الاول · وبــدت علامات الاعياء على الاخ الثالث فتم سحبه بسرعــة · وكان هذا هو الاخ الذي استعاد وعيه عند وصولي ·

ولم يستعد الاخ الثاني وعيــه رغم انه كان يتنفس ، ومــات بعد وصولي بنصف ساعة · وهكذا فقــد اخوان حياتهما في محاولتهما البطولية ـ لكن السيئة التنظيم ـ لانقاذ اختهما الصغيرة ·

والحقيقة المثيرة، هي ان الحفرة كانت بئرا ولم تكن مرحاضا · وكان البئر جافا ، ولكن كانت في قعره بقايــا نفايات واوساخ · ويمكننا التخمين بأن البنت كانت تلعب حول البئر عندما فقدت توازنها وسقطت فيه· وقد استغربت كيف ان بئرا كهذه قد ولدت هذه الغازات السامة ·

وقد مررت بعد بضعة اسابيع بقرب البئر فوجدته غير مغطى ، رغم ان تغطيته او ردمــه ـ وهذا افضل ـ امر سهل · ويصعب على الغربي فهم هــذه اللامبالاة المنتشرة بين العرب · فحضارتنا قائمــة اساسا على الوقايــة والاحتياط ·

وكل حادث عندنا يؤدي الى سعي دؤوب للحيلولة دون وقوع حادث مماثل له · وتنتشر في مصانعنــا اللافتات المكتوب عليها « السلامة أولا » والتــي تحذر العمال من المخاطر المحتملة · ويمكنني الاستطراد في الكلام عن هذه النقطة الى ما لا نهاية ·

ولم تكن الوقاية والحيطة متبعتين في الجزيرة العربية حيث كانت الامور متروكة على غاربها · ومن المرجح ان

الدين الاسلامي القائل بالقدرية يشكل السبب الرئيسي في عدم المبالاة السائدة · فما هو « مكتوب » سيحصل وليس هناك مهرب من «القدر» · ويبقى للمسلم الامل الغامض بأن « الله سيرفق بنا » · وقد تشبع عقل العربي تماما بهذا الفكر حتى اصبح يستقبل مصائب الحياة وافراحها بهدوء· ومن الواضح ان الوقاية والحيطة تكونان غير منطقيتين في ظل هذا النوع من التفكير ·

ومما يعزي النفس ان نعلم ان تغيرا تدريجيا قد طرأ على نمط التفكير هذا خلال السنوات القليلة الماضية· فهناك الان مقدار من التنبه واليقظة محل الخمول واللامبالاة القاتلة · وقد ازداد تأثير الطب الحديث ـ ومفتاحه «الوقاية» ـ في أوساط الكويتيين · واصبح التطعيم والتلقيح اكثر انتشارا · واصبح التجار يستصدرون بوالص تامين على ممتلكاتهم تحسبا لأية أخطار محتملة ·

ولا بد في الختام ، من الاشارة الى انه لم يمت اي عامل من عمال تنظيف المراحيض منذ وقت طويل ، ربما نتيجة للتغيير في النظرة الى الامور التي ذكرتها الان ·

ولنأمل بأن يتحرر العرب قريبا من الايمان القاتل « بالقدرية » ، والذي يمثل العدو الشرس للتقدم الفعلي ·

-١٦-

غزو الجراد

نزلنا ذات مرة ضيوفا على الشيخ مبارك في معسكره في الصحراء على بعـــد عشرة كيلومترات من الكويت ، عندما قطعت زيارتنا اسراب كثيفة من الجراد زحفت علينا واضطرتنا الى الرحيل من المعسكر ، وقد أكل الجراد كــل ما صادفه في طريقه وكل ما حط عليه ، بما في ذلك الطعام والملابس وحتى الخيام نفسها ، وكانت مغــادرة المعسكر نزوحا فعليا بالنسبة لنا اذ تركنا المكان باقصى سرعة ٠

وزارنا الجراد مرتين في تلك السنين المبكرة ٠ جاءت في المرة الاولى اسراب طائرة حجبت نور الشمس وبقيت في المنطقة حتى وضعت بيوضها والتهمـــت كل ما يمكن التهامه في الصحراء ٠ ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا الصحراء وقد تحولت الى بساط اخضر براق ، وادركنا ان البيوض قد فقست وان الجراد بيننا ٠

ومن الصعب المبالغة في وصف البؤس الذي سببته هذه الحشرة للكويت وضواحيهـــا ٠ فقد هاجمنا الجراد

الزاحف بأسراب لا تحصى يتألف كل سرب من نحو عشرة الآف جرادة ، وكان يتجه شرقـــــا باستمرار · كما كان بالامكان مشاهدة اجنحة الجراد وهي في بداية نموها · ثم وهي تكبر اسبوعيا وحتى تكتمل في الاسبوع السادس حيث يتمكن الجراد من الطيران بعيدا · ويحدث اثناء هــــذه الاسابيع ان تأكل الاسراب الاصلية التي تضع البيض كل ما في الصحراء ، بينما تترك للاسراب المولودة الاكتفاء بأكل كــل ما نما خــــلال تلك الاسابيع ، وغالبا ما يكون ذلك نبـــاتات صغيرة ·

ويهاجم الجراد ، اثناء زحفه على المدينة ، الحدائق فيأكل كل ما فيها من بطيخ وباذنجـــان وطماطم وغيرها · وكان المزارعون يعملون ليل نهار في اقامة حواجز من التنك اللماع المأخوذ من صفائح الكاز·وعندما تنفذ هذه الصفائح كانوا يستعملون الورق اللماع ، وبالتالي كان هناك اقبــــال كبير على نسخ المجلات الاجنبية مثل مجلة « اخبار لنـدن المصورة » (**ذي ايلستراتد لندن نيوز**) ومجلة « المحيط » (سفير) وغيرها · فالجراد لا يقوى على تسلق الجـدران الملساء ·

وعندما وصل الجراد الى سور المدينة لم يحاول ان يلف حوله ، بل تسلقه رأسا · وكان علو طبقـــات الجراد في بعض انحاء السور يبلغ قدما ، واخذ الرجال يحرقونه بالمشاعل وقدر ما حرقوه بالملايين ·

كما غزا الجراد الدكاكين في السوق وأكل كل شيء تدخل فيه مادة السليولوز* · وسارع الباعة محاولين اخفاء

* السليولوز : مادة تؤلف الجزء الاساسي من جدران خلايا النبات·

بضائعهم في صناديق ,وادراج وتغليفهـــا بصفائح التنك وبالورق اللماع ·

وكان الجراد حين يصعد وينزل الجدران غير المغطاة يتركها في حالة من العفن والقذارة التامـــة · اما وجود الجراد في المنازل ، فكان يجعل الحياة فيها لا تطاق · وكان المرء حين يدخل غرفته ليلا ويجد مخدتـــه مغطاة بالجراد الذي يفرز سائلا لزجا اخضر اللون فوقها وفوق كل ما يحط به يشمئز الى حد يصعب وصفه بالكلمات · ·

وبعد ان يلتهم الجراد كل ما توفر من طعام ومواد ، كان يتحول الى أكل بعضه البعض · وكان من المنفر رؤية ثلاثة او اربعة جرادات يسحبن جـــرادة ضعيفة وينشرن ارجلها ثم يبتلعنها بسرعة فائقة ·

وقد فرحنا فرحا لا يوصف عندمـــا اكتملت اجنحة الجراد وطار بعيدا عنا ، رغم انه خلف الدمار وراءه ! فقد اكل الجراد حتـــى سعف النخيل فبدت كأذيـــال الخيول الحليقة والمعلقة على عامود · وفقـــدت الطرفاء* لمائها وماتت الخرفان والماعز جوعا بينما جاعت الجمال ·

ولا عجـــب ان العبرانيين كانوا يرتعدون من الجراد : « جيشي المعظيم الذي ارسلته اليكم » ·

وافضل وصف كتب حول طاعون الجراد جاء في كتاب جويل ، الفصلين الاول والثاني :

....

* الطرفاء : شجرة جنبة نحيلة الاغصان ·

« وغزت ارضي امة قويـــــة لا يمكن عدها ، واسنانها كاسنان الاسد » ٠

« فسد الحقل ، والارض في حداد فقد ضاع القمح » ٠

« كيف تئن الوحوش : قطعان الغنم محتارة لانها لا تجد المرعى » ٠

« يوم مظلم وحزين ٠٠٠٠ قوم اقوياء وعظام » ٠

«النار تلتهم ما امامهم٠٠٠٠ وخلفهم ارض عراء جدباء، ولن يفلت منهم شيء » ٠

« ان ظهورهم كظهور الخيول ، وكالخيالة سيجرون » ٠

« سيركضون كالرجـــــال الاقوياء : ويتسلقون السور كالمحاربين ، وسوف يدخلون من النوافذ كاللصوص » ٠

وهذه بعض الدرر من كتاب جويل ، ولكن كل بيت فيــه يستحق الاستظهار ٠ والفصل في الواقع قطعة مأثورة عن الجراد ٠

وما زال الجراد الناضج والمكتمل الجناحين يعتبر اكلة شهية عند العرب ٠ فهم يسلقونه ويضيفون اليه قليلاً من الملح ثم يتركونه يجف٠ ويكون طعمه عندئذ كطعم الكستناء المشوية. ويجري جمع الجراد من الصحراء وجلبه بكميات كبيرة الــى المدينة حيث يوضع في سلال ويعرض للبيع في السوق ٠ وقد اكل حنا المعمدان (احد اتباع المسيح ورفيقه) الجـــراد مع العسل ٠ وذكر الجراد في كتاب لفيتيكوس على انــه طعـــام حلال ٠ ووصف الجراد في هذا الكتاب كما يلي : « المخلوقات الطائرة الزاحفة ذات الارجل التي تعلو القدمينلتتمكن مــن القفز على الارض بواسطتها » ٠ (لفيتيكوس : ١١:٢١و٢٢)٠

وقد باشرت «لجنة الجراد» برئاسة البروفسور يوفاروف

من المتحف البريطاني منذ عشرين سنة اجراء بحث دقيـق في الجزيرة العربية حول الجـــراد ، كما قامت في الوقت نفسه باتخاذ الاجراءات الواقية منه والمؤدية لتدميره · ومما زلنـا نامل في ان تكلل جهودهم بالنجاح لتخليص الجزيرة العـربية من هذا البلاء المدمر ·

-١٧-

الكويت تنشئ مستشفاها ومدرستها

ومع توسع خدماتنا الطبية وازدهارها وازدياد شعبيتها، ارتفعت في الكويت اصوات تنادي بعدم اعتماد البلد على الاطباء المسيحيين وعلى المستشفى المسيحي في معالجة مرضاها . ودعا اصحاب تلك الاصوات الى انشاء مستشفى كويتي والى احضار طبيب مسلم لادارته والاشراف عليه .

وتم في اواخر عام ١٩١٤ او اوائل عام ١٩١٥ تشكيل جمعية لتحقيق هذا الهدف اطلقت على نفسها اسم « الجمعية الخيرية الاسلامية الكويتية » . واختارت اللجنة منزلا فسيحا على البحر كمقر للجمعية ، وقامت بتأثيثه كمستشفى وكعيادة . كما قامت بشراء الاجهزة والادوات الطبية والادوية . واستقدمت بعد ذلك طبيبا تركيا للاشراف على المستشفى .

ولم ينجح مشروع الجمعية بتاتا . فقد قيل ان الطبيب كان يسرف في الشرب ، وانه لم يكن كفؤا ، وكان كسولا ويكره العمل .

ولم يكن اي من اعضاء الجمعية الذين اسسوا المشروع على دراية بالطب ، ولا بمهنته الطبية ، وبالتالي كانوا عاجزين

عن الاشراف على مشروع من هذا النوع • واخيرا ، لم يكن الشيخ مبارك متعاطفا مع المشروع• فقد كان يعتقد ان الكويت ليست مهيئة بعد لاقامة مشروع بهذا الطموح • وكان، بالطبع، محقا كل الحق في اعتقاده هذا •

وتازمت الامور عندما جرى اتهام الطبيب التركي بارتكاب خطأ مهني في عمله• فطلب الشيخ مبارك الرّجل وامره بمغادرة الكويت•وكانت تلك نهاية ما كنت اسميه«مستشفى المعارضة». ولم يسبب لنا ذلك المستشفى اي ضـــرر • وقد اظهر مستواه المتدني ، في الواقع ، مدى ارتفاع مستوى مستشفانا • وكانت المقارنة بين المستشفيين خير دعاية لنا •

وقد كتب آخر فصول القصة في الثاني من مايو عـــام ١٩١٦ ، بعـــد مضي وقت طويل على اغـــلاق « مستشفى المعارضة» • (وكان الشيخ مبارك قد توفي منذ ستة شهور) •

فاثناء زيارة احد الشيـــوخ الشبان لي اثيرت مسالة «مستشفى المعارضة » بشكل عرضي • وقال لي الشيخ اثناء تبادل الحديث ان مبنى « مستشفى المعارضة » مليء بالاثاث والمعدات والاجهزة ، ثم سالني : « الا ترغب في اخذها كلها ؟ انها تهترىء ولا ينتفع بها أحد » •

وشكرته على عرضـــه واعربت عن قبولي للعرض • وحضر في اليوم التالي الى مستشفانا موكب من الرجـــال والحمير المحملة بكل اثاث وتجهيزات « مستشفى المعارضة »• ومن بين الاجهزة التي حصلنا عليها جهـاز (ميكروسكوب) ممتاز ، رغم انه غير معد لاداء عمل المستشفى لانـــه لم يكن مزودا بعدسة خاصة بالغمر في الزيت • وكان المجهر ما يزال في علبته وبدا واضحا ان العلبة لم تفتح • والمجهر موجود الان ، حسبما اعلم ، في مدرستنا في البصرة حيث يستعمل في

الاعمال المختبرية البسيطة · اما بقية المعدات والادوات فبدا واضحا انها قد اختيرت من قبل رجل لا تتوفر لديه المعرفـــة اللازمة لشراء المعدات والادوات الطبية ·

وكانت المحاولة الاصيلة لبناء مستشفى كويتي عبـارة عن طموح كبير تم تحقيقه الان ، عام ١٩٥٠ ، بشكل لـم يحلم به رجال عام ١٩١٤ · وقد شهد عـام ١٩١٤ بداية تنبه عامة الناس لاحتمال وجود النفط في بلدهم · فقد بدأ الجيولوجيون مسحهم للكويت في ذلك العام · ومن المشكوك فيه ان يكون اي انسان قد فكر حينئذ بوجود هذه الكميات الهائلة من النفط في الكويت، والتي اكتشفت منذ بضع سنين· ولم يكن لدى الكويت مال وفير عام ١٩١٤ ·

ولدى كويت اليوم مستشفى مدينة عظيم المظهر · وقد كلف بناؤه مبلغا كبيرا من المال ، ولكن الكويت اليوم غنية · فعائدات النفط تكفي لسد كل احتياجاتها ومتطلباتها ·

وتشبه قصة بداية نشاطنا التعليمي في الكويت وتاثيره على المدينة قصة نشاطنا الطبي الى حد كبير · وقد شعر زميلي القس اي· اي· كالفرلي منذ ارساله الى الكويت عـام ١٩١٢ بأهمية النشاط التعليمي الحديث، ولم يكن هناك تعليم حديث في الكويت في تلك الايام · وكان النشاط التعليمي يقتصر عـلى المدارس القرآنية ·

وقد ازدهرت مدرسةالدكتور كالفرلي منذ انشائها ، فقد اعطى للاولاد العلم الذي كانوا يبغونه ، وبالتالي كان نجاحه حتميا · وكما حدث لنشاطنا الطبي ، ازدادت شعبيـة نظامنا التعليمي ، مما اثار حساسية اوساط معينة في الكويت· فاخذ هؤلاء يقولون : « لا يمكننا ان نقبل قيام المبشرين المسيحيين بتعليم ابنائنا · وقبل ان نعي حقيقة ما يجري اصبح اولادنا

مسيحيين · اننا نقوم بمخاطرة ليس هناك ما يبررها يجب ان ننشيء مدارسنا الحديثة الخاصة بنا » ·

وكان المحرض الرئيسي زعيم عائلة كويتية كبيرة ، وقد وضع كل ثقله في الميزان ضدنا · ونظم الرجل حملة لجمع التبرعات تمكن بنتيجتها من انشاء مدرسة المباركية · وما زالت هذه المدرسة تنمو وتزدهر ·

وكان اول مدير للمدرسة مصريا ، وكانت نظرته للامور عصرية ومتقدمة ، بل في الواقع عصرية جدا بالنسبة للكويت· فقد علم الكويتيين ان الارض كروية،وانها تدور حول الشمس، وكل هذه الامور المبدئية التي نسيناها منذ زمن طويل والتي كانت موضع جدال لا ينتهي في الكويت ·

وقد اثارت التعاليم الجديدة المحافظين ودفعتهم للتنديد بكل الهرطقات الموجودة في تعليم المدير المصري · واضطر المصري في النهاية الى مغادرة البلد ، واستقدم مكانه تركي قديم صاحب صوت جهوري من ازمير · وقام التركي بتدريس الافكار البالية بالطرق القديمة · واشبعت رغبة النقاد وتابعت المدرسة طريقها الذي يعتبر نسخة طبق الاصل عن المدارس السابقة ·

ولكن المدير المصري انتقم بدوره، بعد بضعة سنين، اذ تمت اعادة النظر في المنهج الدراسي وتم تغييره نحو الاتجاه الحديث · واصبح المصري مشهورا ، وهو الان سفير لدى الحكومة البريطانية من قبل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود· وقد احتل هذا المنصب لعدة اعوام واثبت انه دبلوماسي قدير ·

ومن الطريف ان نذكر اننا كنا نعرض كرة جغرافية

ارضية صغيرة في « بيت الكتاب المقدس » الذي افتتحناه في الكويت · وقد اثارت هذه الكرة جدلا لا نهاية له من جانب الزوار ، وكان الجدل يحتدم احيانا · فكان احد الزوار عـادة يسأل : « هل تصر على ان الارض كروية ؟ » ويتفجر الجـدال ففي تلك الايام كان القول بان الارض كروية يعتبر خروجا على الدين · واضطررنا اخيرا الى اخفاء الكرة الجغرافية الارضية تجنبا للمشاكل ·

وقد تغيرت الامور كثيرا خلال السنين الماضية· فالكويت تمتلك اليوم ، عام ١٩٥٠ دائرة تعليم ممتازة تشرف على عدة مدارس ليست للاولاد فقط وانما للبنات ايضا · وتهتم هـذه المدارس بتعليم العرب والايرانيين ، السنة منهم والشيعـة · واصبح التعليم في الكويت يقف على قدميه اليوم ، ولكن يجب الا ننسى ان الدكتور كالفرلي كان الرائد في هذا المجال ·

وقد اغلقت مدرسة كالفرلي لاسباب اقتصادية ولكن بعد ان اتم نثر بذوره وزرع نبتتـــه التي يشاهد الجميع ثمارها حاليا · ومع ذلك ، فمن المؤسف انه جرى اغـــلاق « مدرسة الكويت » التي قدمت خدمات ممتازة بادارة الدكتور كالفرلي والدكتور بارني · ويتصف التلاميذ الذين درسوا في مدارس ارساليتنا بشخصية وســـلوك مميزين · فنفوذ جون فان اس وفرد بارني وادرين كالفرلي يترك اثــره دائما على كل تلميذ يلقنــه ·

وانني اعتقد ان الارسالية ارتكبت خطأ هائـــلا عندما قامت باغلاق مدارسها في البحرين والكويت · فليس هنـــاك في الدنيا تعليم افضل من التعليم المسيحي وليست هناك كارثة

في الدنيا اكبر من تحويل مدارسنا في اميركا وانجلترا الــى مدارس علمانية ·

اخيرا ، دعونا نتذكر بوضـــوح ان المبشرين هم الذين وضعوا اسس كل النشاط الطبي والنشاط التعليمي الــذي تسطع انواره فوق الكويت اليوم ·

-١٨-

كلمة وفاء للأرسالية العربية

ان لمهنة الطب في الجزيرة العربية، كما في معظم البلدان، مكانة خاصة٠ وهناك مثل عربي يضع الطب قبل الدين٠ وحتى كلمة دكتور بالعربية (حكيم) تعني الرجـــل الحكيم ٠ وهكذا فالطبيب في الجزيرة العربية رجل معتبر يستشيره النـــاس ويستمعون الى نصيحته ، وله نفوذه في المجتمع وامامه عــدة فرص للتأثير على الرأي العام ولوضع أسس التقـــدم المسيحي بطريقة غير مبتـــذلة تقضي على التعصب الـــديني والتمييز العنصـــري ، وان امكانات عمل الطبيب المسيحي للخـير في الجزيرة العربيـــة ، اذا توفرت لديه الشخصية المـلائمـة ، امكانات غير محدودة ٠

وقد جاءت الافتتاحية التالية في مجلة الارسالية العربية الفصلية « الجزيرة العربيـة المهملة » عــــدد ١٤٢ ــ يوليو ــ اغسطس ــ سبتمبر عام ١٩٢٧: « القى السير ارنولد ويلسون، المندوب السامي السابق في العراق وصاحب الخبرة الطويلة في شؤون الخليـــــج .« الفارسي » السياسية ، محاضرة في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن في يناير حــــول موضوع « السياسة في الخليج » «الفارسي » ٠ ونحن ننقل مقطعـا من

باب الشرق الادنى والهند الذي علق فيه حول عمل الارساليات في الخليج والعراق :

« لا اود ان اتكلم عن الخليج « الفارسي » بدون ان اسمع شهادة لصالح العمل الرائع الذي يقوم به المبشرون ٠ وانا لا اقول انهم يربحون المهتدين الى المسيحية باعداد كبيرة، ولكنهم نجحوا ـ بمساعدة المستوى الرفيع من الاستقامة الذي اظهره المسؤولون والتجار البريطانيون ـ في احداث تغيير عميق في النظرة العربية الى المسائل الاخلاقية ٠ فالعربي محمدي اولا وعربي ثانيا ، مثل الشعوب الاسلامية كافة ، وهو يعتبر الاوروبيين مسيحيين قبل اي شيء اخر ٠ وهو يعرف ، ربما افضل مما نعرف نحن ، بان جذور تصرفنا تكمن في ديانتنا ٠ وهو يحترم تصرفنا اكثر من احترامه لتصرفه ٠ وهو لا يحتقر الذين ينذرون حياتهم لنشر الدين المسيحي بالمثل والتعليم، بل يقدرهم ويحترمهم كثيرا ٠ وليس هناك نفوذ في الخليج « الفارسي » أقوى من نفوذ المبشرين فيما يتعلق بمسائل الخير ، ولا يحترم الناس اي اوروبي مثلما يحترمون المبشرين امثال زويمر وفان اس وهاريسون ، وماليري ، أما الذين يشجبون الارساليات الاجنبية فهم غير منصفين مع انفسهم ويضرون بسمعتنا الطيبة » ٠

وكم ترقص قلوب الاطباء بنيت وهاريسون ودام فرحا وهم يفكرون بالكويت والرياض وعنيزة ٠ فمجرد ادراكهم بانهم فتحوا ابوابا مغلقة لقرون مكافاة تستحق جهد اي انسان لانها مكافاة الرائد التي تضعه في مصاف ليفينغستون وهنري مارتن ، وروبرت هاريسون وكل هؤلاء الرجال العظام ٠

والمكافأة هنا اكبر لان العمـــــل يتم بدفع قوة الحب · فهؤلاء الرجال لم ينطلقوا بحثا عن الشهرة والثروة ، وانما تخلوا عن الشهرة والثروة وتبعوا الرب · وقد اثبتوا حقيقة الوعد « في هذه الدنيا مئة ضعف » ، وهم حتما سيثبتون فيما بعد الجزء الثاني من الوعد المزدوج ·

ملحق

ـ ١ ـ

ان مراقبة الدقة التي يستخدم بها صانع السفن الكويتي ادوأته تعتبر درسا في حد ذاتها فهو يضرب ضربات متناهيـة الدقة على مساحة صغيرة تبلغ جزءا من البوصة ، وبعد ان ينتهي من عمله على بدن السفينة الجاهز نجد سطحه مصقولا وكأن الات دقيقة قد قامت بالعمل وليست يدا بشرية٠ ويستخدم صانع السفن ادوات محدودة تتألف من قدومين او ثلاثة ذات احجام متفاوتة ومطرقتين او ثلاثة ذات احجام متفاوتة ايضا، والثقاب المقوس الشرقي المعروف ، ومنشارا أو منشارين ٠

وتصنع كل المسامير المستعملة يدويا من الحديد المطاوع، حيث يقوم الحداد بطرقها مسمارا مسمارا ٠ وهـذه المسامير كبيرة اذ يتراوح طول كل منها ما بين تسع بوصات وثـــلاثة اقدام ، وهي مربعة الشريحة وتنتهي براس كبير اشبه بالفطر٠ ولا يستعمل مسمار البرشام في بناء السفن ، وانما يجري طرق المسامير العادية في ثقوب محفورة بدقة متناهية ، ثم تلوى من الداخل بعد ان يتم ادخالها في الثقوب ٠وربما يكون استعمال

المسامير العادية مصدر ضعف للسفينة لان اصطدام الامواج بجوانبها حين يكون البحر عاتيا يسبب تسربا بسيطا من خلال ثقوب المسامير، وهذا على الاقل ما اخبرني به بحارون انجليز. ويعتبر صانع السفن الكويتي هذه التهمة مردودة وباطلة ٠

وتصنع دعامات هذه السفن ـ وهي عادة كثيرة ـ من الاقواس الطبيعية٠ ولا تسير هذه السفن بقوة الدفع البخاري. ويبدو تركيب هذه الدعامات فوق جسم السفينة المقوس مستحيلا ، ولكنه في الواقع يتم بسهولة ٠

ويعتبر بناء السفن في الكويت، في الواقع مسألة غريزية، ولا يدرك صانعو السفن الكويتيون مدى مهارتهم ٠ وصناعة السفن تراث ورثه الكويتيون جيلا بعد جيل ٠ ويستورد كل الخشب المستعمل في بناء السفن من ملابار في الهند ، وتقوم السفن الكويتية بنقله من ملابار الى الكويت ويستعمل خشب « التيك » في صنع ارضية السفينة وجوانبها، بينما يستعمل خشب الادغال للدعامات ولرافدة القص ومقدمة السفينة ومؤخرتها ـ رغم ان هذه الاجزاء الثلاثة الاخيرة تصنع احيانا من خشب التيك ٠ ويذكر الكتاب والقصاصون احيانا ان صواري السفن تصنع من خشب التيك ، ولكن هذا ليس صحيحا ٠ فخشب التيك ليس مرنا ، وهو ينكسر بدلا من ان ينحني اذا استعمل كصارية وخشب الصواري خشب عادي خال من العقد ويكون لونه زهريا عند قطعه ثم يصبح كلون الكستناء الاسباني ٠ وخشب صواري السفن الكبيرة باهظ الثمن ، اذ تكلف الصارية الرئيسية مئتي جنيه استرليني وربما اكثر ٠

وكانت كل الحبال ، العادية والضخمة التي تستعمل في

شد السفن الى البر ، مصنوعة من الياف النخيل بواسطة الات بدائية كان بالامكان مشاهدتها على طول الساحل في العـــام ١٩١١ اما اليوم فنادرا ما يشاهد المرء الات صنـــع الحبال هذه ، لان كل الحبال اصبحت تستورد من الخارج وهناك جزء واحد من النخلة يستعمل لصنع الحبال وهو الفروع الطويـلة الخشنة التي تحمل عناقيد البلح · ويجري عـادة طرق هـذه العناقيد بالمطرقة الى ان تصبح رخوة ويسهل تفريغها · وتكون الحبال التي تصنع من فروع النخل قوية وخشنة وقاسية على اليدين خاصة عندما تكون جديدة ·

وتصنع الاشرعة يدويا بالطبع · ويقوم صانعو الاشرعة برسم تصميم تقريبي للشراع المطلوب على الارض ، توضـــع على اساسه قطعة من قماش القنب* وتقطع بشكل متواز الـــى قطع عرض كل منها ثلاثة اقدام ثم يقوم الخياطون بوصل القطع المطلوبة بالابر بسرعة عجيبة · وعندما يكون الشراع كبيرا يجري تشغيل عدد كبير من الخياطين في حياكته · وغـالبا ما ينتهي العمل في الشراع في يوم واحد ولم اشاهد اي شـــراع متروك ليلا لاتمامه صباح اليوم التالي الا في مناسبات نادرة·

ويبدو القماش المستعمل في الكويت هزيلا او مهلهلا اذا ما قيس بالقماش المستعمل في الغرب والذي تجري حياكتـــه بشكل متين ومتماسك · ويستورد الكويتيون قماش القنب مــن الهند وهو رخيص نسبيا ويخدم مدة طويلة · وتعتبـر اشرعتنا الغربية ، في الواقع ، اكثر سمكا بالنسبة للمراكب الصغيرة · ولا أعرف الى اي مدى درس المنتجون الغربيون سوق الاشرعة

....

* قماش القنب : قماش تصنع منه الخيام والاشرعة ·

العربية ، ولكنني لم اشاهد سوى اشرعة انجليزية في الكويت كانت اثقل وربما اغلى من الاشرعة الهندية ٠

ولا يطلي الكويتيون سفنهم بالدهان٠ فهم يطلون الاجزاء السفلى من جوانب السفينة بمزيج من الكلس وزيت السمك ٠ ويطلون الاجـــزاء العليا من جوانبها بالزيت فقط ٠ ويضفي منظر السفينة الجديدة بلمعانها وبريقها وباشرعتها الجميـلة البهجة على نفوس محبي السفن وهم يشاهدونها تغادر الميناء لاول مرة ٠

وحدة القياس المستعملة في سفن الشحن الكويتية هي «كيس الرز سعة ١٢٠ (ماية وعشرون) باوند*» فتسمع الناس يتكلمون حول مراكب حمولـــة ٢٠٠ كيس وحمولة ٣٠٠ كيس وهكذا ٠اما حمولة السفن العابرة للمحيطات فتتراوح ما بين ١٠٠٠ و ٥٠٠٠ كيس ٠ والبواخر التي تحمل ٥٠٠٠ كيـــس قليلة ، واغلب البواخر الكبيرة تحمل ما بين الفي وثلاثة الاف كيس ٠

وقد تم منذ بضع سنين بناء سفينة استثنائية كبيرة فـــي الكويت حمولتها ١٢٫٠٠٠ كيس ٠ وكان في السفينة محـــرك اضافي ٠ ولا اعلم اذا كانت تلك السفينة مجزية تجاريـــا ٠ وقد آلت ملكيتها الى الملك بن سعود ، والترتيب المتبـــع عادة في اشرعة السفن في الخليج « الفارسي » يستعمل الشـــراع المثلث الشكل ، مع بعض التعديلات التي تدخل عليـــه في بلاد الخليج المختلفة ٠

* باوند : رطل انجليزي يساوي ٤٥٣ غراما تقريبا ٠

ويجرى تجهيز البواخر العابرة للمحيطات تجهيزا حسنا للملاحة ، ويتـــم تزويدها بصناديق بوصلة حديثة وبخرائط حديثة ايضا • ويعرف ربابنة السفن العرب البحار معرفة تامة، ورغم انهـــم لا يقرأون الانجليزية فهم يستخرجون معلومات كثيرة من الخرائط المكتوبـــة بالانجليزية ويتمكنون من رسم صورة للساحل وتحديد الاعماق بالقامات تحديدا دقيقا • ويعرف بعض الربابنة العرب كيف يستعملون الة السدس* ولكن سفنهم غير مجهزة بالكرونومتر* وبالتالي لا يمكنهم استنباط الخـط الطولي اطـــلاقا ولكن معظم ملاحة الربابنة العـــرب ملاحة ساحلية ، وبالتالي فان معرفتهم «بامتداد الارض » وللنجوم الرئيسية تمكنهم من قيادة مراكبهم بدقة لا تجارى • وافضـل كتاب حول هذا الموضوع الشيق كتاب **ابنـــاء السندباد** لمؤلفه الان فيليير ، الذي قام بعدة رحـــلات بحرية على متن السفن الكويتية ، من بينها رحلة مباشرة من عدن الى ساحل افريقيا الشرقي • (وسأنهي هذه الاطروحة حـــول السفن العربية بالاشارة الى الاعتقاد السائد في الكويت بانه اذا قفزت النساء العربيات على عارضة سفينة جديدة فانهن يضمن حملا فوريا • واعتقد ان هذا الاحتفال يمارس ليلا لانني لم اشاهد أي امرأة تقفز على عارضة سفينة جديدة) •

ـ ٢ ـ

توفي الشيخ مبـــارك العظيـم يوم ٢٨ نوفمبر عــام

....

* آلة السدس : آلة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية من سفينة او طائرة متحركة •

* الكرونومتر : اداة لقياس الزمن بدقة •

١٩١٥ ، بينما كنت في البحرين لحضـــور اجتماع ارساليتنا السنوي • وبما انه كان يسبق عصره بجيل ، فلم يقدر عظمته سوى قلة منرعاياه • وكان الشيخ يهتـم كثيرا بفن الحرب • وكانت براعته في استعمال الخرائط تذهلني • وحال ما دخلت تركيا الحرب الى جانب بريطانيا كان اول عمل قام بـه مبارك انزال راية « النجمة والهلال » (العلم التركي) عن سارية قصره ورفع علم أحمر مكانه عليه كلمة « الكويت » بحروف بيضاء وهذا العلم ما يزال حتى الان (عام ١٩٥٠) علم الكويت • وكان مبارك يكره تركيا التي كانت خنجرا في خاصرته لسنين طويلة ويتشوق الى رؤيتها مهزومة هزيمة ساحقة • وقد شعر بمرارة وخيبة امل كبيرتين عندما سمع بالانتصارات التركيـة في بداية الحرب • وكم كان سيسعد لو عاش ليرى تغير مجرى الحرب وهزيمة القوات التركية •

وخلف مبارك ابنه الكبير ، جابر ، ولكنه لم يعش سوى اربعة عشر شهرا اثر توليه الخلافة ، اذ توفي في ٥ فبراير عام ١٩١٧ •

وهناك حادثة وقعت اثناء حكم جابر وما تزال عالقة في ذهني • فقد وصل ابن سعود الى الكويت في ١٩ نوفمبر عـام ١٩١٦ على متن طراد بريطاني يصحبه السير برسي كوكس الممثل الاول للحكومة البريطانية • واقام الشيخ جابـر حفلة رسمية لهما فياليوم التالي في قصره،قام خلالها السير كوكس بتقليد كل من ابن سعود والشيخ جابر وساما بريطانيا رفيعا • واحضر الشيـخ جابر يوم ٢١ نوفمبر ابن سعـــود والشيخ خزعل ــ شيخ محمره ــ لزيارة مستشفانا ــ وقام الثلاثة الكبار بعد ذلك بزيارة منزلنا وتناول الشاي معنـــا • وشعرت انا وزوجتي بفخر عظيم ونحن نستقبل « سيد الجزيرة العربية » في بيتنا • وما زلت ارى ابن سعود وهـــو جالس في غرفة

استقبالنا وعلى ركبته قطتنا الفارسية البيضاء الجميلة ٠ وما زلت اذكر حديثا دار بين الثلاثة الكبار حول الشفاء الالهي ٠ وقد اثار الحديث اهتمامي بشكل خـاص لان ابن سعود كان مؤمنا صادقا ٠ بينما كان خزعل حسبما لمست من حديثـه ، شكوكيا* الى حد كبير ٠ ولم يشترك جابر في الحديث ٠ وانا اعتقد انه لـم يكن راغبا في الدخول في جدال مـع ضيفيه الكبيرين ٠ وقد اتخـذ ابن سعود موقفا متشددا في صالح الشفاء الالهي ٠

خلف الشيخ جابر على عرش الكويت ابنه الثاني سالم الذي تولى الحكم ما بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢١ ٠

وكان حكم سالم مضطربا ٠ فقد اختلف مع ابن سعود العظيم حول مسألة التجارة والضرائب وتخللت ايام حكمـه كلها حرب خفية او علنية مـع ابن سعود ٠ وليس هناك ادنى شك في ان ابن سعود كان سيستولي على الكويت لولا المساعدة البريطانية الفعالة جوا وبحرا التي قدمت لسالم ٠ وقد اختلف سالم ايضا مع الحكومة البريطانية اثناء الحرب العالمية الاولى حول مسألة « التبادل التجاري مع العدو » وكان سالم رجلا لا يشك في شجاعته ولكنه لم يكن دبلوماسيا ٠

وتوفي سالم في يوليو عام ١٩٢١ وخلفه ابن اخيه احمد الجابر الابن الاكبر للشيخ جابر ٠ وكان احمد الجابر بالطبع حفيد الشيخ مبارك ، ودام حكم احمد الجابر أكثـر من ٢٨ عاما ، وتوفي في ٢٩ يناير عام ١٩٥٠ ٠ وقد ازدهرت دولـة الكويت في عهده ازدهارا عظيما ، ويرجع ازدهارها اساسـا وليس كليا الى اكتشاف النفط فيها ٠ ومن الطريف ان نذكر ان

---

* الشكوكي : النزّاع الى الشك وخاصة في مبادىء الدين ٠

الشيخ احمد قاد بنفسه اول عملية حفر للتنقيب عن البتـرول في الكويت في ٣٠ مايو عام ١٩٣٦ ٠ وكان احمد رجلا قديرا وقد صمد امام العواصف والمكائـــد السياسية مرات عديدة واثبت لاعدائه انه خصم صعب المنال ٠

ـ ٣ ـ

وشيخ الكويت الحالي هو عبدالله السالم المبارك ، ابن سالم وابن عم احمد ٠ ونحن نتمنى له حكما مزدهرا ٠

عندما كان السـير أرنولد ويلســون مديرا عاما لشركة النفط البريطانية «ا لفارسية » والتي تعرف باسم شركة النفط البريطانية ـ الايرانية ـ تبرع بمبلغ ٥٠٠٠ روبية نيابـــة عن الشركة لبناء المستشفى النسائي التابع للارسالية في البحرين. كما ارسل ٢٥ جنيها كتبرع شخصي منه للهدف نفسه في ١١ نوفمبر عام ١٩٢٥ ٠

ـ ٤ ـ

نشر الدكتـور تشامبرلــين هـــذا المقـــال في مجلة « الجزيرة العربية المهملة » عدد ١٠ يناير وفبراير ومارس عام ١٩١٧ ٠ وقد أعيدت تسمية المجلة فأصبحت تعـــرف بمجلة « النداء العربي » وهي مجلة فصلية خاصة تصدرها الارسالية العربية ٠

ـ ٥ ـ

من دواعــي سروري العظيـــم أن أسجل أن المعتمـد السياسي البريطاني المذكور كان يتعاطف كثيرا مع عملنا ٠ وقد اعطانا في ٣٠ اكتوبر عـــام ١٩١٥ الف روبية من اجل بناء جناح جديد في المستشفى الرجالي التابع لنا في الكويت ٠

فهرس

الصفحة	العدد

ملتزم الطبع : مؤسسة تلستار للاعلام
الكويت : ص.ب ٢١٩٣٣ ت : ٤١٤٧٤١

هذا الكتاب هو مذكرات لاحد الاطباء الذين عاشوا في الكويت والبحرين منذ بداية النصف الاول من هذا القرن ، وتشمل الفترة اربعين عاما بين سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٤٧ .

ورغم ان هذه المذكرات تبدو للقارىء في اول الامر وكانها ذكريات كتبت كيفما اتفق من شخص « يهوى » الكتابة ويمتهن « الطب » والتبشير ، الا ان الملاحظ المدقق يمكن ان يتعرف على رموز القيادات البشرية التي تصدت للعمل السياسي في ذلك الوقت في الكويت وما جاورها ، فهو يصف رجالا قابلهم سواء من الكويتيين او من رجال حكموا بعضا من اقطار جزيرة العرب ، وسجل لنا بكل امانة ردود افعالهم كما شاهدها على كثير من الموضوعات . فقد وصف مثلا الشيخ مبارك حاكما فتال كما كان يراقب « وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لاي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة او حتى بجواد للركوب ، اما المسنون المتعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة» كذلك وقد وصف « يوم الاحد الدامي » الذي عاشته الكويت في العاشر من اكتوبر ١٩٢٠ والذي كان يوم معركة الجهراء الشهيرة ، ووصف الاستعداد للحرب وتلقي انباء القتال ، وحالة المدينة الصغيرة آنذاك وهي تتوقع بين فينة واخرى دخول المحاربين المهزومين وخلفهم جموع المنتصرين ينهبون المدينة الصغيرة ، وقبل ذلك وصف عملية بناء سور الكويت الذي كان من المفروض ان يحمي المدينة من الغزو ، وقارن بين هذا السور وكلمة مبارك الصباح عندما قال « ان الكويت لا تحتاج الى سور .. انا سورها .. » .

نرجو ان يجد القارىء في هذا الكتاب متعة وفائدة ..

منشورات دار حوار للطباعة والنشر
الكويت
السعر : ٥٠٠ فلس
او ما يعادلها